المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

جبرا ابراهيم جبرا

# الغرف الأخرى

رواية

جميع الحقوق محفوظة

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً : موكيالي - بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٦

# الغرف الاخرى

## (رواية)

جبرا ابراهيم جبرا

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تروي إحدى الحكايات القديمة أن أميراً أحب امرأة من عامة الناس وتزوجها . ولشدة هيامه بها ، خصّص لها قصراً قديماً كان قد ورثـه عن أبيه ، أمسى شديد الاعتزاز بـه . وقال لهـا يوم أسكنهـا القصر ، إن فيه أربعين غرفة ، لها أن تشغل منها تسعاً وثلاثين ، عامرة كلها بـالطنـافس والرياش والنفائس . أما الغرفة الأربعون ، فليست لها ، وهي محـظورة عليها . وتظاهرت الزوجة بالرضا . غير أنها ، إذ راحت تسرح وتمرح في رحاب القصر وغرفه التسع والثلاثين ، بقيت تشتعـل فضولاً ورغبـة في دخول الغرفة الأخرى ، الغرفة الأربعين .

وذات يوم ، خرج الأمير الى الصيد ، واصطحب معه معظم من في القصر من خدم وحشم . فاغتنمت زوجته فرصة غيابهم ، وذهبت الى باب الغرفة المحظورة ، ومعها صندوق مليء بمفاتيح القصر . واخذت تجرّبها في قفـل الباب واحـداً واحداً . ولكنهـا اخفقت في ان تخترق القفـل ، وبقي الباب موصداً دونها .

فلم تتردد في الاسراع الى غرفة أحد الخدم ، وعادت منها بمطرقة كبيرة تكاد تعجز عن حملها ، وبكل ما اوتيت من قوة رفعتها ، وهوت بها على الباب ، وكسرته .

ودخلت الغرفة ، وإذا هي تتفرع الى غرف تتصل الواحدة بالأخرى ، ويتفرع كل منها بدوره الى المزيد من الغرف . وسمعت صوتك يقول لها : « اذا كنتِ انت انت يا اميرة ، فارجعي الآن قبل ان تندمي ! وإلّا فلن تخرجي مثلما دخلت ! » فقالت : « يا الهي ، كيف عرف انني اميرة ؟ لا بدّ ان هذا صوت الشيطان ! » ورفضت ان تعمل بما سمعت من نصيحة . . .

* * *

ثمة رواية اخرى لهذه الحكاية تقول إن زوجة الأمير ، حين اغتنمت فرصة غياب من في القصر ، وذهبت الى باب الغرفة المحظورة ، ومعها صندوق مليء بمفاتيح القصر ، ما كادت تجرّب المفتاح الأول حتى وجدت ان الباب غير مقفول . بل إنه تراجع مفتوحاً حالما وضعت يدها عليه ، كأنه كان في انتظار مجيئها . . . ودخلت الغرفة . . .

# الغُرَفُ الأُخرى

كانت الساحة ميداناً كبيراً من ميادين المدينة ، تمتد على جانب منه أشجار اليوكالبتوس الكثيفة ، وعلى الجوانب الأخرى مبانٍ متراصة عالية ، كان ميداناً موحشاً ـ في تلك الساعة . لا أحد يتحرّك فيه او على جوانبه ، ولا تعبره سيارة او مركبة من اي نوع . والوقت ؟ كان عصراً ، بل بعد غروب الشمس ، وقبيل هبوط الظلام ، في تلك اللحظات القلقة الموحشة التي سئمت النهار وباتت تتوق الى ليلٍ بطيء القدوم . وضوء النهار المتبقي رصاصيّ ، أغبر ، فيه مذاق الخيبة والحزن . والساحة العريضة خالية ، خاوية ، مهجورة ، منسيّة من الله ومن البشر ، كأن المدينة لم يبق فيها من يتحرك ، من يسعى ، من يحب ، كأن وباءً قد اجتاحها ولم يرحم أحداً .

على الرصيف وقفت ومعي رجل لا أعرفه ، ولا أعرف ما الذي جمعني به . وقفنا معاً ، صامتَيْن ، ننظر الى أشجار الحرش المقابل . وبين حين وآخر نقلّب البصر في هذا الاتجاه وذاك في انتظار شيء ما . وفجأة انطلقت من بين الاشجار اصوات عيارات نارية متلاحقة ، ودهشت حين رأيت آلاف العصافير تنطلق كالشظايا من على قمم الأغصان وتطير متنائية في

الفضاء . ثم عاد الصمت مرة أخرى . وتمتم زميلي ، وهو يرتدي معطفاً قديماً أسود يبلغ الكاحلين : « حتى العصافير . . . » ولم أدر أقال ذلك لي ، ام لنفسه . ولكنه نظر إليّ متوقعاً ردّ فعلٍ مني . أما أنا ، فلم أتحرك ، ولم أقل شيئاً ، وأنا أتابع بعينيّ العصافير في طيرانها العشوائي المفاجىء ، إلى ان اختفت .

لم ييأس الرجل من محاولة التقرب مني . أخرج علبة سكائر ، وقدم لي سيكارة ، ولكنني هززت رأسي بالرفض ، دون ان أقول شيئا . دسّ سيكارة بين شفتيه ، وأشعلها بقداحة ، ثم نفث الدخان من فمه بما يشبه الفحيح ، والتأفف .

سمعت من بعيد هدير سيارة قادمة من اليمين ، فاتجه بصري نحو الطريق الذي توقعت ان تبرز السيارة فيه . وخمنت ، من ضخامة الصوت ، انها ستكون شاحنة كبيرة. واذا بالفعل شاحنة تدخل الميدان ، غطاؤها ـ خلف مقصورة السائق ـ من التشادر الأخضر . كانت الشاحنة مسرعة على الطرف المقابل ، بمحاذاة الحرش ، فرفعت يدي ملوّحا للسائق ، وكذلك فعل الرجل الواقف بقربي . بل إنه لوح بذراعه بحماس بالغ وصاح : « هنا ! هنا ! » .

رآنا السائق ، فأبطأ قليلا ، ثم استدار في اتجاهنا ، الى ان ادركنا ، وتوقف تماما . فوجدت ان الشاحنة مفتوحة عند المؤخرة ، وقد امتلأ حوضها بالبشر . ثلاثون او اربعون رجلا وامرأة كانوا واقفين فيها تحت السقف القماشي . وقع بعضهم على بعض عند توقف الشاحنة ، ولكنهم لكثرتهم بقوا منتصبين متلاصقين . وبصمت غريب .

خطا زميلي نحو باب الحوض ، ودفع الرتاج الذي على اليمين ، والآخر الذي على اليسار ، واسقط الباب ، وصعد الى الحوض لينضم الى الراكبين ، وهم ينظرون اليه بغير مبالاة . ولما لم أفعل مثلما فعل ، بل بقيت اتطلع الى وجوههم محاولاً أن اتعرّف على بعضهم ، والعتمة الرصاصية لا

تسعفني كثيراً ، ارتفع صوت رجل من بينهم قائلا : « تحرّك ! ألن تصعد ؟ »

قلت : « من انتم ؟ »

فضحكت فتاة كانت واقفة عند الحافة ضحكة شبه هستيرية ، وقالت : « يريد ان يعرف من نحن ! » ثم التفتت إليّ بتحدٍّ . « ولماذا يا استاذ تريد أن تعرف من نحن ؟ » .

وكما اندهشت لرؤية العصافير تنطلق أسراباً من الاشجار عند سماعها أصوات العيارات النارية ، اندهشت لهذه الفتاة حين ادارت اليّ ظهرها ، ورفعت أطراف تنورتها عاليا حتى انكشف ردفاها عاريين ، وجعلت تهزّهما هزًّا فاحشاً أمام عينيّ . وفي تلك اللحظة انحنى بعض الذين قربها الى باب الحوض ، ورفعوه ، وسدوه بالرتاجين ، والفتاة ما زالت تستعرض أمامي ردفيها المكوّرين الأبيضين ، ثم انزلت تنورتها ، واستدارت نحوي ، وقالت وهي تنحني وتتكىء على الباب المنخفض : « لم يبق أحد لم يركب معنا . هيا » .

وجاءني صوت عالٍ من اعماق الشاحنة : « إصعد يا رجل ! لا تؤخرنا ! »

أنعمت النظر فيما بينهم ، ولكنني لم استطع أن أتبين وجهاً واحداً أعرفه . في الواقع ، لا أظنني رأيت وجوها بالمعنى المألوف ـ بل عشرات من الأقنعة المتشابهة ، المبهمة . فيما عدا وجه الفتاة التي تفضّلت عليّ بفحشها ، ودعوتها . فقد كان وجهاً شاباً لا يخلو من حُسْن ، محاطاً بشعر فاحم يبلغ الكتفين ، وقد تشعّثت خصلاته وتطايرت حول الجبين والخدّين : وجهاً لا أعرفه ، ولكنني أستبينه بوضوح .

هززت رأسي رافضاً ، ولم اتكلم . وما كدت اتراجع الى الرصيف ، حتى زمجرت الشاحنة ، واستدارت في الميدان ، وانطلقت صاخبة في الاتجاه

الذي كانت ذاهبة فيه من قبل . وبقيت أتابعها بعينيّ وهي تبتعد في الطريق الطويل ؛ إلى ان تلاشت .

عندها أحسست بوحشة رهيبة . وكدت أندم على رفضي ركوب الشاحنة ، لولا انني عدت وأقنعت نفسي بضرورة الانتظار ريثما أرى أحداً أعرفه ، او أطمئن اليه . وتساءلت : ترى أين يذهبون ؟ ومن هم ؟ ولماذا انضمّ اليهم زميلي بتلك السرعة وذلك الحماس ؟

فجأة ، اشتعلت المصابيح على أطراف الميدان ، وعلى جانبي الطريق . غير أن الذي لفت نظري ، هو ان المباني التي حولي ، وهي جميعاً ذات طوابق عديدة ، لم يشتعل في نافذة منها أي ضوء . تمشيت ذهاباً وإياباً على الرصيف ، وشعوري بالانتظار يقلقني ، ويضيق له صدري ، ولا أعرف من هو ، او ما هو ، الذي انتظره . وقلت : « لا يمكن للمرء أن يكون بمثل هذا النسيان . مستحيل ! » .

عندما رأيت شخصاً قادماً من بعيد ، يسير على مهل على الرصيف المهجور في اتجاهي ، توقعت ان يكون رجلاً أعرفه . لم أتبينّ وجهه ، وقد رفع ياقة معطفه المطري حتى غطت ذقنه وفكّيه ، ويداه مدسوستان في الجيبين ، إلى أن اقترب كثيراً مني ، وحسبت انه سيبادرني بالتحية ، غير أنه بقي على بطئه في السير ، ومرّ بي غير ملتفت إليّ ولو التفاتة المستطرق الغريب . خيّل إليّ لبرهتين أنني عرفت وجهه ، ولكنني كنت مخطئا ، وكبحت رغبتي في ايقافه والتحدث إليه . غير أنني بقيت أتابعه بنظراتي وهو يبتعد . ولما امسى على مسافة عشرين او ثلاثين مترا مني ، توقّف . تلفّت حوله كمن يريد التأكد من المكان الذي هو فيه . وبقيت أراقبه . لم يتحرك لبضع دقائق . وبعدها استأنف السير ، وابتعد ، إلى أن رأيته ينعطف في شارع ثانوي ويختفي .

يبدو أنني ، لانشغالي به ، لم انتبه الى السيارة التي كانت قادمة من الخلف في اتجاهي . إلاّ أن صوت محركها اشتدّ وجعلني استدير فجأة

نحـوها . واذا هي دونمـا ضوء ، تبـطىء ، ثم تتوقف بجـانبي . وقلت لنفسي : « أف ، الحمد لله ، أخيراً ! » ومن خلال النافذة ، دققت النظر في السائق ، ووجدت أنه امرأة . أشعلتْ ضوء السيارة الداخلي لكي اتبينها جيداً ، وقالت ، من مكانها وراء السكّان : « من فضلكَ ، هل رأيت رجلاً يلبس معطفاً مطرياً يمرّ من هنا ؟ »

قلت : « نعم » .

- « متى ؟ »
- « قبل دقائق » .
- « أين ذهب ؟ »
- « دخل ذلك الفرع ـ الفرع الثاني الى اليمين » .

قالت : « شكراً » . ولكنها لم تتحرك . بقيت تحدّق إلى وجهي إلى أن قالت : « هل كنت تنتظرني ؟ » .

ولم أكذب حين أجبت : « والله لست ادري » .

ضحكت بصوت عذب وقالت : « كنت تنتظرني ، طبعا . تفضل ، إصعد الى جانبي » .

ودونما تردّد فتحت الباب ، ودخلت السيارة ، وجلست الى جانبها ، وبي شعـور بأنني تخلصت من عنـاء الترقّب والسـأم . وحـالمـا استقـرّ بي الجلوس ، وتمعّنت في وجههـا وهي تتحول إلى « الكـير » الأول لتستأنف حركة السيارة ، ادركت ان وجهها ليس جديداً عليّ . فسألتها : « ألم أرك قبل حوالي نصف ساعة ؟ » .

- « أنت رأيتني ؟ أين ؟ »
- « في الشاحنة ، مع عدد كبير من الرجال والنساء » .
- « أية شاحنة ؟ »
- « شـاحنـة مـرت منّ هنـا قبـل قليـل ، وكنت انت واقفـة عـلى مدخلها » .

ـ « ما الذي تتحدث عنه ؟ »

ـ « وأدرتِ لي ظهرك ، ورفعتِ أطراف تنورتك . . . »

ـ « أنا ؟ »

ـ « أنت بالذات ! وأردت مني ان أنضم اليكم » .

لم تجب ، ولحظت أنها مرت بالفرع الذي كان قد انعطف إليه صاحب المعطف المطري ، ولم تدخل فيه ، بل بقيت مستمرة في اتجاهها . فقلت : « هل غيّرت رأيك بشأن صاحب المعطف المطري ؟ »

ـ « الرجل الذي سألتك عنه ؟ لا يهمني من أمره شيء » .

ـ « لماذا إذن سألتني عنه ؟ »

ـ « مجرّد فضول انثوي ، لا اكثر » .

في الصمت الذي ساد بيننا بعد ذلك لبضع دقائق ، كنت واثقا من انها هي الشابة التي طلبت إليّ الركوب في الشاحنة ، لأنني لم أنسَ تسريحة شعرها الأسود البالغ كتفيها ، والتي كانت خصلات منه تتلاعب على جبينها . واذ خفّضت عينيّ إلى تنورتها ، رغم الظلمة التي باتت تملأ السيارة ، تأكدت ، ولست أدري كيف ، أنها التنورة نفسها التي رفعتها بوقاحة غريبة عن ردفيها في الشاحنة ، مع أنني لسوء الحظ لم استطع ان اتذكر لونها . أية ورطة أوقعت نفسي فيها ؟

لم تكن الفتاة حتى تلك اللحظة قد اشعلت اضواء سيارتها الأمامية ، معتمدة في سيرها على مصابيح الشارع . سألتها : « لماذا لا تشعلين أضواء السيارة ؟ »

فالتفتت إليّ مندهشة : « ولماذا الأضواء ؟ الشوارع كلها خالية » .

ـ « ألا تخشين من حادث ، من طارىء ما ؟ »

ـ « أبداً . أعرف هذه الطريق كما أعرف ظاهر يدي » .

خطر لي خاطر جريء ، فقلت : « اسمعي ، لو سمحت لي ان ارفع

تنورتك هذه ؟ . . . »

ـ « وأنا أسوق ؟ »

ـ «لأتأكد من شيء واحد »
ـ « هو ؟ »
ـ « إذا كنت تلبسين شيئاً تحتها » .

قهقهت وهي تتشبّث بالسكّان ، وقالت : « هل جننت ؟ أم تـظن أنني انا التي جننت ؟ »

ـ « اريد أن أتأكد إن كنت انت الفتاة التي رأيتها في الشاحنة . هذا كل ما هناك » .

وسررت حين اتت بحركة غريبة بساقها اليمنى التي تستعملها للضغط عـلى البنزين ، اذ رفعت ركبتهـا في اتجاهي ، وقـالت ، ولكن بشيء من العصبية : « تفضل ، ارفع التنورة كما تريد ! »

وبانعكاس تلقائي مني امتدت يدي الى ركبتها قبل ان تعيدهـا الى وضعها السابق لكي تستمر في السياقة ، وأمسكتُ بحافة التنورة . غير أن أصابعي استقرت على ركبتها ، ولم تتحرك . كبحت رغبتي العائبة في تحسس ساقها ، وسحبت يـدي ، قائـلاً : « أرجو المعـذرة . ما الـذي ستظنـين بي ؟ . . آسف لتصرفي » .

ـ « لا ، أبداً . الشك مزعج . أعرف » .

ـ « ومقلق » .
ـ « ألا تريد ان تبقى في شيء من الشك ؟ »
ـ « أفضّل أن اعرف الحقيقة ، اذا استطعت » .
ـ « أية حقيقة ؟ »
ـ « اوه . . . الحقيقة القابلة للمعرفة ، على الأقل » .

فضحكت بسخرية لا انكر انني وجدتها جذابة فيها ، وقالت : « غالي وطلب رخيص ! طبعاً هناك ايضاً الحقيقة التي ليست قابلة للمعرفة . ولكن افرض انك في محاولتك قطع الشك اكتشفت ما لم يكن بحسبانك ؟ » .

لم اكن في حالة ذهنية مهيأة لنقاش فكري من ذلك النوع ، ومع غريبة لا أعرف حتى اسمها . وبقيت مركّزا بصري في الطريق الطويل المضاء على الجانبين ، وقد خلا ليس من البشر فحسب ، بل من السيارات ايضا . ولكن مضيفتي لم ترض بصمتي . وأردفت : « لم تجب عن سؤالي » .

- « أي سؤال ؟ » .

- « تحاول ان تقطع شكك باليقين ، وهذا أمر مشروع ومقبول . ولكن افرض انك في اثناء ذلك اكتشفت حقيقة لم تكن هي التي تبحث عنها ؟ »

- « يتوقف الأمر حينئذٍ على الحقيقة التي اكتشفها » .

قلت ذلك بشيء من اليأس . ثم اضفت : « وهذا لا يعني انني انتهيت من شكي القديم . فالحقيقة الجديدة لا تنفي بالضرورة الشك القديم . القلق القديم . الانزعاج القديم » .

- « وإذا وجدت الحقيقة التي اكتشفتها عرضاً هي أيضاً تثير القلق والإزعاج ؟ » .

- « لا تعقّدي الأمور ، أرجوك . »

- « يظهر انك تعتقد ان البقاء في الشك وحده هو المقلق . وأن الحقيقة ، مهما تكن ، تنفي القلق - على قاعدة أن الحق هو الجمال ، والجمال هو الـ . . . أم أنني **أقوّلك** - »

- « نعم . انك تقوّلينني ما ليس ببالي » .

ـ « آسفة » .

ـ « ولكن . . . كما قلت . فالحقيقة ، مهما تكن . . . أف ! ما الذي تريدين من هذه السفسطة ؟ هل كنت أنا في انتظارك ؟ لماذا طلبت إليّ الركوب معك ؟ »

ـ « أراك غضبت . لا بأس .. بامكانك ان تنزل اينما شئت . هنا ، مثلاً ؟ »

وكبحت السيارة بشيء من الشدة ، وأوقفتها . والتفتت إليّ بكثير من التحدي ، استطعت أن اتبينّه حتى في ظلمة السيارة . كانت اضواء الطريق تلقي شيئا من النور الخافت على وجهها ، ورأيت نقطتين تتألقان في عينيها وسط بحيرتين من السواد . لم اكن قد غضبت ، كما زعمت ، غير ان الذي اغضبني كان توقفها الفجائي على ذلك النحو . وزادت الطينة بلة حين اشعلت ضوء السيارة الداخلي ، كأنها تريدني ان ارى بعينيّ كم جادة هي في موقفها . لعن الله الشيطان ! هذه امرأة جميلة أتتني من حيث لا أدري . كيف أغادرها بهذه السهولة ؟ وهل من الضروري ان اغادرها ؟ واين انزل في هذا الدرب الطويل المقفر الذي لا أدري الى ان ينتهي ؟

لم أجب ، ولم أتحرّك لعدة لحظات ، وهي تحدّق إلى عيني . امتدت يمناي الى مقبض الباب ، وفتحته قليلا ، إلا أنني عدت فأطبقته بعنف ، وقلت : « لا اريد النزول » .

ـ « أأستمر اذن ؟ »
ـ « نعم ، استمرّي » .
ـ « عال ! »
ـ « بس ، إلى أين ؟ »

رفعت يدها الى مفتاح الضوء الداخلي وأطفأته ، ثم رفعت « الكير » ، وقالت باقتضاب : « سترى » .

وعندها ركزت أنا من جديد على الطريق ، لعلني أبصر فيه معلماً استدل به على المكان الذي نحن فيه ، إنني ابن هذه المدينة ، وأعرفها شارعاً شارعاً . بل شبراً شبراً . وأرعبني ان ادرك أنني أجهل مدينتي . لم تقع عيناي على مبنى أعرفه . بل ربما لم تكن هناك مبان ـ حتى عندما أضاءت سائقتي ، أخيرا ، مصباحي السيارة ، لم أر شيئا اعرفه ـ اللهم الا شارة الدائرة وأنصاف القطر الثلاثة في داخلها ، وهي تعلو مقدمة السيارة ، ونبهني ذلك الى أنها من طراز مرسيدس . لم يكن على الجانبين سوى الظلام ، رغم انتظام اضواء الطريق . كأننا منطلقان في صحراء . او ربما على ساحل البحر . لا ، لم تكن هناك مدينة . كنا بعيدين عن المدينة ، قطعا . كنا في الطريق بين مدينة واخرى ،ربما .وسائقتي تبدو واثقة من نفسها ومن سياقتها تمام الثقة ، مطمئنة الى انها تسرع الى غاية أجهلها ، أما هي فتعرفها بالضبط .

مرّت دقائق استسلمت فيها للواقع . بل انني انزلت زجاج النافذة لأنتعش بالهواء البارد الرطب الذي جعل يضرب وجهي . ولا بد ان الفتاة لاحظت انصراف اهتمامي عنها ـ ففي مقدوري عادة أن اعزل نفسي عما يحيط بي عزلا كليا ، اذا اقتضت الحاجة ، كأن في ذهني كهفاً عميقاً انزلق اليه فلا أرى ولا اسمع أحداً . في كهفي العميق هذا اخذت الآن استمتع بالهواء البارد الرطب الذي يضرب وجهي ، واسمع موسيقى كنت في الأيام الأخيرة كثير العزف لها ـ « ليليّات » شوبان . إنها جزء من دفاعي الداخلي ضد منغّصات الحياة اليومية . وتخيّلت شوبان الشاب وهو يترك فراش عشيقته جورج صاند في ظلام « مايوركا » ، والمطر يهطل مدرارا صاخباً على الجزيرة المهجورة ، وفي غُرَف المنزل القديم يتحسّس طريقه في ضوء شمعة الى البيانو الذي سيطلقه بأنغامه من كل ما هو فيه ، ويحرّره من مرضه ومن آلامه ـ ولو لليلة واحدة اخرى .

صعقت عندما انتهرتني الفتاة بصياحها : « كم مرة قلت لك أغلق النافذة ! ألا تسْمع ؟ ألَم تبرد بما يكفيك ؟ سأوقف الموسيقى ، عقاباً لك » .

وأدركت انها كانت تعزف كاسيتة في مسجل السيارة ، وقد اوقفته بحركة عصبية من أصبعها . سألتها ، والحيرة بادية في نبرتي ، وأنا أغلق النافذة : « هل كنتِ أنت التي تعزفين موسيقى شوبان ؟ »

- « ماذا تتصور ؟ هل كنتَ أنت الذي تعزفها ؟ » .

- « ولكن هذه الكاسيتة . . . »

- « ما بها ؟ »

- « هي من مجموعتي » .

- « صحيح ؟ إنك تضحكني ، كأنك الوحيد الذي يشتري كاسيتات » .

- « هل لديك غيرها ؟ »

- « عندي العشرات من الكاسيتات . عندما نصل ، لك ان تتعرّف بها كلها » .

- « نصل ؟ إلى أين ؟ »

- « سترى » .

- « سترى ، سترى ! لماذا لا توضحين من أنت ؟ أين تأخذينني في هذا الطريق الذي لا ينتهي ؟ »

- « سنصل قريباً » .

- « لا شك ، لا شك » .

- « ألا تصدّقني ؟ أتظن أنني سأبقى أسوق بك هذه السيارة حتى الصباح ؟ » .

- « ولم لا ؟ كل شيء ممكن في هذه الحياة » .

مرة اخرى اطلقت من حنجرتها الصافية ضحكة ساخرة ، حلوة ، كأنها ليست ساجنتي ، بل صديقتي ، لتقول بلهجة أقرب الى الغنج : « أنت ، كطبيب ، ادرى الناس بذلك . هه ؟ »

ومدت يدها اليمنى وربتت بلطف على فخذي ، لتطمئنني . أم أنها

تتحرّش بي ؟ لأنها ابقت يدها على فخذي . أمّا أنا فكنت مقرراً ألاّ أستجيب . وقد خالجني إحساس قوي بأنها تلعب معي لعبة القط والفأر . وقلت لنفسي إن كانت تريد التهامي ، فلتلتهمني دفعة واحدة ، ولا حاجة الى هذا العبث السخيف .

لم أقل شيئاً ، وأردت الانزلاق من جديد الى كهفي الداخلي العميق لكي الغي وجودها ، ولو لدقائق . غير أنها ادارت وجهها نحوي ، ويدها ما زالت مستقرة على فخذي ، وقالت : « ألا تدخن ؟ »

تلكأت بالإجابة : « بلى . أحيانا » . .

ـ « اذن ، أشعل لي سيكارة » .

أخرجت علبة السكائر من جيبي وسحبت واحدة ، وقدمتها لها صامتاً ، دون أن اسحب واحدة لنفسي . أخذتها من يدي ، ثم اعادتها اليّ قائلة بنبرة امتزج فيها الغنج والأمر : « أشعلها ، ثم اعطني إياها » .

وأشارت الى القداحة المثبتة في السيارة ، وضغطتها ، بينما وضعت أنا العلبة بيننا ، كأنني اقول : لك ان تدخني المزيد متى ما شئت .

أخرجتُ القداحة واشعلتُ السيكارة بشيء من النرفزة ، ثم سحبتها من بين شفتيّ وقدمتها لها . أخذتها ، وقالت وهي تضعها بين شفتيها : « والآن ، اشعل لنفسك واحدة أيضاً » .

فهززت رأسي بحدّة : « لا أشعر برغبة في التدخين » .

أخذت السيكارة بين اصبعيها ، وقالت : « فهمت . انك ترفض . لا بأس » .

وسحبت المنفضة ، وسحقت سيكارتها فيها ، ثم سدّتها بعنف . وتلذذت أنا بغضبها ، وركزت عينيّ في الطريق من جديد ، دون ان أعلّق بكلمة .

لم يطل الأمر بنا هذه المرة . بلغنا منعطفاً إلى اليسار دخلنا فيه ـ بسرعة زائدة صرّت لها عجلات السيارة بحدة ـ وكان الطريق هنا اضيق بكثير من الطريق السابق . وبعد قليل انعطفنا يسارا مرة اخرى ودخلنا طريقاً اشبه بالزقاق . كان طريقا بدون مصابيح ، ومنظوماً على الجانبين بالأشجار . وما هي إلا دقائق حتى انتهى بنا الى ارض فسيحة ، ووقع نور السيارة على بيت كبير ، بعدة طوابق ، قائم على طرف منها ، ما كدنا نراه حتى اشتعلت في نوافذه الأضواء .

وقفت السيارة على مقربة من البيت ، وقالت الفتاة بعد صمتها الطويل : « تفضل ، انزل » .

ترجّلنا كلانا ، واذا بي أرى شاحنة ضخمة تتقدّم نحونا من الطرف المقابل . فصرخت ـ أجل ، صرخت كالمعتوه : « لا ! لا ! » .

ولكن الفتاة ، دونما اكتراث كثير ، قالت وكأنها تتعامل مع طفل مشاكس : « بلا صياح ، بلا صياح ، ارجوك ! » .

ـ « ولكن هذه هي الشاحنة التي رأيتها في الساحة ـ هناك . . . » .

ـ « ولم لا ؟ »

صرخت بها مرة أخرى : « ماذا تريدون مني ؟ من أين أتت هذه الشاحنة ؟ »

لم تجب رفيقتي ، وحين توقفت الشاحنة بمحاذاتنا ، جعلت ترقب الأناس المزدحمين في حوضها وهم يترجّلون قفزاً من مؤخرتها ، وقد تسلّط عليهم ضوء ساطع لحظت أنه مركّب في الأعلى من واجهة البيت . كانوا خليطاً من الرجال والنساء ، شباباً وشيوخاً ـ هكذا خيّل إليّ من حركاتهم وأشكال أجسامهم . وبالضبط كما حدث لي في المرة الأولى ، لم استطع أن اتبين وجوههم ، لأن الضوء الساقط عليهم ما لبث أن اطفىء فجأة ، ولم تكن الانوار المتسربة إلينا من النوافذ كافية لرؤية واضحة . والأدهى من

ذلك أنهم كانوا صامتين جميعاً ، لا يصدر عنهم سوى سعال طفيف هنا وهناك ، وخيّل إليّ أن بعضهم يئن انيناً مكتوما ، متقطعا .

انشغلت الفتاة عني بهؤلاء الوافدين ، وبدا لي أنها راحت تعدّهم وهم يكادون يزحفون زحفا خلال البوابة الحديدية الكبيرة التي فتحها أحدهم على عجل ، على الطرف الآخر من الدار . وخطر لي عندها أن اقفز إلى سيارتها ، وأهرب بها . وبالفعل ، تحركت كاللص نحوها ودنوت من باب السائق ، ودققت النظر من خلال الزجاجة المغلقة لأرى اذا كان مفتاح التشغيل في مكانه . واذا الفتاة تصيح بي من بعيد : « هل نسيت شيئاً في السيارة ؟ »

فأجبت ، صائحاً أيضاً : « نعم ، نسيت ! »

وبتصميم حازم فتحت باب السائق ، ومددت يدي الى موضع مفتاح التشغيل . لعنه الله ! لم يكن ثمة أي مفتاح .

صفقت الباب ساخطاً وعدت الى مكاني ، بانتظار فراغ السجّانة من مهمتها . وبعد أن دخلوا جميعاً ، وانغلقت البوابة عليهم ، عادت إليّ وهي تهرول ، وأخرجت من حقيبتها اليدوية مفتاحاً فتحت به الباب الرئيسي الذي وقفت على عتبته ، وقالت : « تفضل » .

كانت قاعة المدخل المضاءة كبيرة ، فارغة ، فيما عدا كرسيين او ثلاثة ، دلفنا منها الى باب جانبي ، بمحاذاته مرآة طويلة أنيقة قُصَّت على شكل شجرة ـ رأيت خيالي فيها ، فقلت : غريب ، هل هذا أنا ؟ ولو لم ألمح فيها الفتاة التي معي تماماً كما هي ، لأقسمت أنني ضحية خدعة بصرية . خيِّل إليّ فيها أن لي شارباً كثاً اسود ، وأن شعر سالفيّ وشعر رأسي قد خالطه البياض . وعندما مرقنا من الباب تحسست ما فوق شفتي العليا لأتأكد من أن لا شارب لي ، ولكنني لم استطع معرفة ما اذا كان شعر رأسي الأسود قد أصابه الشيب دون أن أدري .

كان في صدر الغرفة مكتب فخم جلس إليه رجل كبير الهامة ، أصلعها ، يتحدث بالتلفون ، والى جانبه امرأة تكتب . لعله كان يملي عليها رسالة ما ، لأنه كان وهو يصغي الى التلفون ، ينظر الى الورقة التي امام المرأة . كان الرجل في زي لم استطع تحديده ، تتألق ازراره النحاسية ( او الذهبية ؟ ) كلما تحرّك ، وهو ورفيقته كلاهما في حدود الخمسين ، او هكذا حسبت . وضع الرجل عنه سماعة التلفون بعد دخولنا الغرفة بقليل ، ونهض واقفاً على قدميه ، ثم التفت الى المرأة وقال : « اعتني بالأمر ريثما أرجع » .

وحسبت أنه سيتقدم منا ، غير أنه خرج من أقرب باب إليه بعجلة ظاهرة ، واغلق الباب وراءه .

رفعت المرأة وجهها نحونا لأول مرة ، وقالت لرفيقتي ، وهي ترفع منظرتها عن عينيها : « كنت أخشى أن تتأخري . لماذا لا تجلسان على تلك الكنبة ؟ »

وأومأت بمنظرتها الى اريكة في ناحية قصية من الغرفة الفسيحة .

أجابت رفيقتي : « فليجلس الدكتور . أنا مشغولة قليلاً » .

وما كدت أجلس ، حتى هرولت خارجة من الباب نفسه الذي خرج منه الرجل . وبعد لحظات دخلت منه فتاة اخرى ترتدي فستاناً ازرق بلا ردتين ، وبيدها مجموعة من الأوراق وضعتها على المكتب ، ثم جاءت في خط مستقيم الى الكنبة التي جلستُ على طرف منها ، وجلست على الطرف الآخر . وأعادت المرأة التي وراء المكتب المنظرة الى عينيها ، وانهمكت في تصفح ركام من الملفّات امامها ، لا ترفع بصرها عنها .

تنحنحت الفتاة الجديدة قليلاً ، كأنها فيما ظننت تريد قطع الصمت بيننا ، ثم زحفت بجلستها نحوي ، مما جعلني أتأمل في وجهها الطفلي . كان شعرها قصيراً ، وعيناها واسعتين شديدتي البزيق ، وهي تعضّ على

شفتها السفلى ، الريّانة بحمرة طبيعية . ذكّرني وجهها بشيء لم استطع تحديده ـ شيء صبياني ، بريء ، نظيف ، يكاد يضوع منه شذى زهرة برية . فهمست لها : « ما اسمك ؟ » .

وضعت سبابتها على شفتيها ، واشارت الى الشمطاء الجالسة وراء المكتب الفخم . واقتربت مني حتى التصقت بي ، ثم رفعت كفيها وأخذت وجهي بينهما ، وسحبتني اليها في قبلة حارة طويلة . لم أمانع . وما كادت ترفع شفتيها عن شفتيّ حتى عدت واطبقت شفتيّ على فمها ، امتصّ شفتيها بنهم ، وامتص الرحيق من لسانها ، وأصابعها تنغرس في شعري وتعبث به . وفجأة ابتعدت عني بما يشبه الفزع ، ونظرنا كلانا إلى صاحبة المكتب الفخم . ولكن وجدنا أنها ما زالت في شغل تام عنا بالملفّات . فاتكأت الفتاة بظهرها على ذراع الكنبة ، وأشارت لي بيديها أن اقترب . فاقتربت ، وانحنيت فوقها ، والتقمت شفتيها ، ولما امتدت يدي الى صدرها ، مكّنتني من ان ادخل يدي في قميصها ، وأخرج من وراء السوتيان ـ ولو بشيء من الصعوبة ـ نهدين نافرين نَضِرين ، يملأ كل منهما يدي بعربدته وعنفوانه . وهويت بفمي عليهما ، على وليمة الشهوة التي ضجّ الجسد بها بعد ذلك السأم ، وتلك الحيرة ، وذلك القلق .

*

دنت بفمها من اذني ، ولحستها بلسانها ، ثم همست : « لماذا قاومتني في السيارة ؟ »

فشعرت كأنها دلقت عليّ سطلاً من الماء البارد ، وانتصبت في جلستي ازاءها ، وتأملت فيها . ورددت هامساً : « ماذا ! هل أنت نفس الفتاة ؟ » .

ضحكت ضحكتها الصافية الساخرة الحلوة ، التي لم اكن لأخطئها : « خدعتك ، أليس كذلك ؟ » .

ـ « ولكن شعرك الأسود الطويل . . . »
ـ « اوه ، باروكة نزعتها في لحظة » .

فارتفع صوتي غصباً عني : « مستحيل ! مستحيل ! » واذا الشمطاء تقول من وراء مكتبها : « ما بك يا دكتور ؟ ما هو المستحيل ؟ »

أجبتها يائساً : « هذه الحال التي أنا فيها ، يا سيدتي » .

فوجهت سؤالها الى الفتاة ، كأنها تخاطبها بلغة خاصة لا أفهمها : « ما به صاحبنا ؟ »

وببرودة مذهلة اجابت ، وقد أصلحت هندامها وعدّلت جلستها : « اعتقد انه مضطرب قليلاً . . . ثم إنه جاء بدون حقيبته الطبية » .

والتفتت إليّ ، وأردفت : « حتى الستيتوسكوب نسيته يا دكتور ! لا بأس . عندنا ادوات طبية كثيرة ، غير مهم » .

وكأكبر أبله في الدنيا ، رجّعت صداها : « غير مهم » .

وكأنني اردت ان ابدي شيئا من العقل او الادراك ازاء ما أنا فيه ، فأضفت : « المهم هو المريض . أين المريض ؟ » .

حدّقت بعينيها الواسعتين البرّاقتين إلى عينيّ البائستين الحائرتين ، وبوجه يخلو من كل تعبير قالت : « أي مريض ؟ لا مرضى عندنا » .

ـ « اذن لماذا جئتم بي هنا ؟ »
ـ « للضرورات أحكام ، دكتور » .

ورأيتها ، ووجهها ما زال على خلوّه من كل تعبير ، تمدّ قدمها ، بحذائها الأسود الأنيق ، ذي الكعب العالي ، وتعابث بها قدمي ، بحذائي البنيّ الصفيق ، ثم ترفع بمقدّم حذائها حاشية بنطلوني عن كاحلي ، وتحك ساقي .

كدت أُجَنّ ! سحبت قدمي ، وتراجعت إلى طرف من الكنبة ،

عندما رنّ التلفون بقوة مزعجة على المكتب .

رفعت الشمطاء السمّاعة وقالت : « هلو . . . نعم . نعم ، نعم . إنه هنا . . . طيب ، لحظة » .

ومدت السماعة في اتجاهي ، وقالت : « يريدونك على الخط » .

تعجبت . يريدونني أنا ؟ من يعرف أنني هنا ؟

قمت الى التلفون ، وتناولت السماعة ، وقلت : « هلو ! »

وجاءني على الخط صوت رجل لا اعرفه ، يخاطبني مخاطبة صديق قديم أراه كل يوم : « اهلاً ، دكتور ! كيف حالك ؟ آسف لجعلك تنتظر . مشاكلنا كما تعلم تبدأ عند هبوط الظلام . ولكنها قضايا أمنية صرف ، لا تهمك . المهم أنك أخيراً جئت » .

فصحت به من خلال السماعة : « من أنت ، أصلاً ؟ وماذا يهمك من مجيئي ؟ ما هذه اللعبة السخيفة ؟ »

قهقه محدّثي الهاتفي : « لا تكن عصبيا ، ارجوك . أتنسى بهذه السرعة ؟ »

- « أنسى ماذا ؟ »

- « لقاءنا على رصيف الساحة الكبرى ، ولو ، دكتور ! »

- « ماذا ؟ هل انت الرجل . . . آ . . صاحب المعطف الاسود الطويل ؟ » .

- « بعينه ! . . سأراك بعد بضع دقائق . ارجو المعذرة مرة اخرى لجعلك تنتظر » .

وسدّ التلفون .

وما كدت اعود الى مكاني حتى جاء الرجل ذو الصلعة الشامخة والزي

الذي تلتمع فيه الازرار كالذهب ، وتقدم مني هذه المرة باحترام شديد ، وقال وهو ينحني قليلا : « هل جنابك حاضر ؟ الكل في انتظارك » .

فأرسلت نظرة تساؤل الى مرافقتي الجالسة بصمت على الطرف الآخر من الكنبة ، فأشارت الي بعينيها وبهزّة من رأسها ان اذهب مع الرجل . بل انها نهضت ، واقتربت مني لتشجعني على النهوض . فامتثلت ، وسرت وراءه ، وهي تصاحبني .

دخلنا الى دهليز طويل مظلم ، أدّى بنا إلى دهليز مظلم آخر ، لولا ضوء أحمر في نهايته يعلو باباً حديديا عريضا ، كأبواب المسارح الخلفية . وقلت لنفسي : إذن أنا مدعوّ لمشاهدة مسرحية . . . لا بأس . سنرى .

انفتح احد المصراعين العريضين ، ودخلنا . وكان هناك انعطاف او اثنان قبل ان وجدت أنني في ما يشبه الكواليس ، دفعني من خلالها دليلي الى خشبة مسرحية ضيقة بعض الشيء ولكنها شديدة الانارة ، في وسطها منضدة صُفَّت وراءها ثلاثة كراسي ، واستقرّ عليها ميكروفون . واستقبلني رجل آخر ـ لعله صاحب المعطف الطويل اياه ؟ ـ بحرارة ، واقتادني الى الكرسي الاوسط ، وجلس الى يميني ، في حين جلست الفتاة الى يساري .

كانت قاعة النظارة على شيء من الاتساع ، او ان ذلك ما بدا لي بسبب انعدام الاضاءة فيها . وكانت ملأى بجمهور ما زال يتنحنح ، ويتململ في الكراسي فتصدر عنها طقطقة وصرير ، الى ان استقرّ بي الجلوس وراء منضدة الخطابة . فحلّ في القاعة صمت احسست به مشحوناً بترقب لا أعرف سببا له . ومرة أخرى ، من موقعي الشديد الإثارة ، تمعنت في وجوه الجالسين أمامي . ومرة أخرى ، كانت الخيبة نصيبي . فالوجوه تكاد لا ترى ، او لا استطيع تبيّنها ـ اللهم فيما عدا نقاطا من البريق لعلها كانت عيون الجمهور ، او زجاج النظارات التي يلبسها بعضهم . وتذكرت عبارة مرافقتي « للضرورات أحكام » . أية ضرورات جاءت بي هنا ؟ وما الذي سأحاضر فيه هؤلاء الناس ؟ ولماذا تكون هذه المحاضرة ضرورية ؟

قام رئيس الحفل الذي على يميني ( لِمَ لم يجلس هو في الوسط ، كعادة رئيس الحفل ؟ ) وسحب الميكروفون نحوه ، رافعا طرفه باتجاه فمه ، بعد ان سعل سعلة خفيفة ، وقال :

« سيداتي ، سادتي ،

« لم يكن من السهل أن نستحضر خطيبنا هذا المساء ، بسبب الظروف الطارئة التي تعرفونها . غير أننا كما ترون ذللنا الصعاب ، بل وضمنّا حضوركم الكريم ايضا . نرجو عذركم ان كنتم لقيتم بعض الازعاج او العنت في طريقكم الى هذه القاعة ، وهي التي طالما نعمت بوجودكم بين جدرانها . ولا نشكّ في انكم ، لو لم تستطيعوا المجيء ، لكنتم الآن في منازلكم تتساءلون ، ربما بكثير من الأسف والحزن ، ما الذي جرى وسيجري هنا ، ما الذي قيل وسوف يقال لا في هذه القاعة فحسب ، بل في الغرف العديدة الاخرى المتصلة بها ، والتي كثيرا ما تجوّلتم فيها على راحتكم ، وانتم تتناقشون . . . خطيبنا الدكتور نمر علوان غنيّ عن التعريف . . . » .

نمر علوان ؟ هل انا نمر علوان ؟ الآن اكتشفت السرّ في كل ذلك التصرف الغريب ! لقد أخطأوا في معرفة هويتي ، وصار الذي صار . فلم أتردّد في الحال بمقاطعة الرئيس ، اذ سحبت الميكروفون باتجاهي وقلت بصوت لا يخلو من الانزعاج : « ولكن ، سيدي الرئيس ، أنا لست الدكتور نمر علوان » .

لم يأبه الرئيس لمقاطعتي ، بل استرجع الميكروفون وقال ، وقد رفع صوته ليعلو على اللغط الذي صدر عن القاعة : « كما قلت ، خطيبنا الدكتور نمر علوان غني عن التعريف . ومهما يتواضع ، فإننا جميعاً نعرف خدماته الجليلة للطب في هذه المدينة ، كما نعرف مؤلفاته الكثيرة التي — »

وبإصرار عنيد ، صحت : « أية مؤلفات ؟ أنا لم أؤلف كتاباً واحداً في حياتي ! »

واذا احد الجالسين في الصف الأمامي من القاعة ينهض واقفاً ، ويقول : « نطلب من السيد الخطيب ألاّ يقاطع الرئيس ، رجاء » .

فوجهت اليه كلامي قائلا : « إذا اردتم مني محاضرة ، فسألقي عليكم محاضرة ، على ان تعلموا أنني لست الدكتور نمر علوان . وهو رجل فاضل ولا ريب . ولكنني ـ لا صغراً به ـ لا أعرفه ، ولم اسمع باسمه من قبل » .

فأجاب : « نحن موافقون ! »

وعاد واستقر في مقعده ، بينما التفت اليّ رئيس الحفل ، وقال : « فليتفضّل الدكتور . وسيجد أننا جميعاً آذان صاغية » .

وقفت ، ووضعت يدي في الجيب الداخلي لسترتي ، واخرجت منه الدفتر الصغير الذي احمله دائما ، وقلّبت فيه ورقتين او ثلاثاً ، متظاهراً بأنني اراجع ملاحظات محاضرتي . ثم قلت :

« ايتها السيدات ، ايها السادة ،

« يسرّني ان تكونوا جميعا آذانا صاغية . غير أن الذي اريد الخوض فيه هذا المساء معكم قد لا يحتاج الى اصغاء كثير ، او اجهاد النفس في الاصغاء . . . » .

وفجأة تسلّط ضوء من حيث لا أدري على رجل في وسط القاعة ، انتصب واقفاً ، ثم اعتلى كرسيه ليراه الجميع جيدا . وصاح ملوّحا بيده ( وأنا أخشى عليه السقوط من على كرسيه ) : « إني ارفض الاصغاء ! كما اني أتّهم الدكتور نمر علوان بالتحايل علينا منذ اللحظة الأولى ، لصرفنا عن المسألة الحقيقية التي جمعتنا هنا هذا المساء » .

وإذا رجل ثانٍ ـ يحذو حذوه ؛ ويقف على مقعد كرسيه ، ويصيح ، وقد سقط عليه ضوء آخر : « نحن لم نأتِ هنا لنستمع إلى محاضرة في الطب . إننا نرفض الاصغاء . كما أنني أثني على ما قاله زميلي الاستاذ محمود

في اتهام الدكتور الخطيب » .

وفي تلك اللحظة تبيّنت الرجلين كليهما تماماً ! إنهما محمود حسن وسامي الإمام ـ الممثلان المعروفان . هل هما ينطقان بصوتيهما ، أم أنهما ، بهذا الحماس الزائد ، انما يمثلان ؟ وصممت على الانسجام مع الوضع الجديد ، وقلت بأعلى صوتي : « هناك طبخة غريبة تطبخ في هذه الساعة . ألا تشمّون رائحتها ؟ »

فصاح محمود حسن من مكانه ، وهو ما زال واقفا على مقعد كرسيه : « خطيبنا يراوغ ، أيها السادة ! هكذا يتملصون من المسؤولية ! كلهم يراوغون ! »

وقبل أن أردّ ، سقط الضوء على فتاة في مؤخرة القاعة ، رأيتها تسير في الممشى الجانبي وتتقدّم من منصة المسرح ، والضوء يلازمها ، وقد امسكت بميكروفون في يدها ، وهي تقول بنبرات قوية : « نعم ، نعم ، كلهم يراوغون ، باستثناء خطيبنا هذا المساء . اسألوني أنا ! فأنا أعرفه منذ زمن بعيد » .

( تعرفني !! لم أكن قد رأيتها من قبل في حياتي ! )

واستمرت دون ان يقاطعها أحد : « أما أنه هو الدكتور نمر علوان ، فأمر مؤكد مئة بالمئة . اتذكرني يا دكتور ؟ انظر اليّ جيداً . أنا هيفاء ـ هيفاء الساعي . ولكنك تنكر هويتك لأنك نسيتها . أو ، وهو الأصح ، لأنك هجرتها عن عمد ، عن سبق اصرار ، منذ ان تركتني ، حتى نسيتها بالفعل . فالقضية أيها السادة ليست قضية مراوغة . إنها قضية اشد مدعاة للأسف . قضية أدعى للرثاء . قضية ضياع انساني كان الأجدر بنمر علوان أن يتغلّب عليه ، أن يقهره . . . »

كانت هيفاء قد دنت من الخشبة ، وظننت أنها ستصعد اليها لتخاطب الجمهور منها . غير أنها اكتفت بأن استدارت وهي في ركنها من القاعة

المظلمة ، وقد امسكت بالميكروفون قريبا من شفتيها ، وهي ما زالت تشير بيدها الطليقة نحوي ، وتقول :

« خطيبنا هذا ضحية . وانا لا أقول ذلـك لتشفقوا عليـه . فهو لا يستحق الشفقة . غير أن الحقائق يجب ان نعترف بأنها حقائق . هذا الرجل الضحية ما عاد مسؤولا عن اي شيء يقوله ، او اي شيء يفعله ! » .

أثارتني كلماتها ، ووقفتها ، ولهجتها . وقاطعتها ساخطاً : « ما هذا الكلام الدعيّ ، الكاذب ؟ اولاً ، أنا لا أعرفك ، ولم أرك يوما في حياتي . ثانيا ، أنا ارفض ما تزعمينه رفضاً باتاً . أنا لست ضحية شيء أو أحد . وأكاد اجزم انك أُرسلتِ الى هذه القاعة لغرض مبيّت ضد هذا الجمهور الكريم ، الذي يبدو أنه جاء حبًّا بنمر علوان ، او احتراماً له ، حتى ولو جاء مكرهاً بشكل ما » .

ارتفع الضجيج في القاعة قبل ان أنهي كلامي . فراح رئيس الحفل ينقر المنضدة بقلمه : « سكوتا ، رجاءً ، سكوتاً . . . كل بدوره ، ارجوكم . يجب ان تستأذنوني بالكلام أولا . . . من فضلكم . . . » .

ثم فاجأني بتوجيه كلامه إليّ : « يبدو يا دكتور أن الأمر اختلط عليك . فأنت أتيت هنا خطيباً ـ وهذا امر لا نقاش فيه ـ ولكنك ترفض الاعتراف بأنك هنا أيضا للمحاكمة . . . »

وجهر الممثلان بصوت درامي واحد : « نعم ، للمحاكمة ! » .

واستأنف رئيس الحفل : « والسيدة هيفاء الساعي جاءت هنا للدفاع عنك . ألا ترى ؟ أرجو أن تعاملها كما ينبغي » .

ما كان مني إلّا أن قعدت مكاني حانقاً ، وطويت ذراعيّ على صدري وأنا أقول : « حاكموا ، اتهموا ، اكذبوا ، دافعوا . لن انطق بكلمة واحدة في وضع كهذا » .

فعاد الهرج والمرج إلى القاعة . ولحظت ان الممثلين الاثنين عادا الى

الجلوس ، وانقطع الضوء عنهما ، بينما بقي ساقطا على هيفاء وهي واقفة في ركنها ، وعيناها تلتمعان كقطة شرسة . واستدار الرجل الذي في الصف الأول نحو الآخرين ـ ولكن المسكين لم يحظ بأي ضوء يسقط عليه ـ وقال :

« ارجو من الاخوة والأخوات ان يهدأوا ، ويتريثوا قبل القاء الكلمات . ولنتذكر ان الدكتور نمر علوان جاء إلينا ليلقي محاضرة ، او أننا اوهمناه بذلك . فمن حقه علينا ، بعد قلب الأمور عليه بهذه الصورة ، أن نعامله بشيء من الرويّة ، وشيء من الاحترام » .

وفي الصمت الذي تلا ذلك ، انبرت هيفاء بصوتٍ جعله الميكروفون الذي بيدها يلعلع في ارجاء القاعة :

« قال الرئيس انني هنا للدفاع . وها أنا أعلنها بصراحة : إني هنا ، مثلكم ، للاتهام . او لنقل ، للادعاء ، بالمعنى القانوني . وبعد قليل سأطلب من السيدة الجالسة على المنصة الى يسار المتهم أن تدلي بشهادتها » .

واذا بمرافقتي تنتفض واقفة ، وتخطف الميكروفون من على المنضدة ، وترفعه نحو شفتيها ، وتقول بنبرات راجفة :

« أية شهادة تريدون مني ؟ هذه مهزلة ! وأنا لن اكون شاهدة في مهزلة . أنا اعرفكم جميعا ، اعرفكم واحداً واحداً . واذا كانت السيدة هيفاء الساعي تريد ان تلعب دور المدّعي على هذا الرجل ، فهي واهمة . واذا ارادت ان تلعب دور المدعي العام ، فإن وهمها أعظم . واذا كانت هي في يوم من الأيام عشيقة نمر علوان ، فإني اطلب اليها ألاّ تنشر غسيلها القذر في هذه القاعة . ولتذهب وتبحث عن نمر علوان في مكان آخر . هذا الرجل اسمه ـ »

والتفتت إليّ ، وابعدت عن فمها الميكروفون ، وسألتني بصوت منخفض ، منحنية نحوي : « عادل الطيبي ـ أليس كذلك ؟ » ومع أنني هززت رأسي بالنفي ، فإنها لم تعطني مجالاً لذكر اسمي ، اذ انتصبت ورفعت صوتها مجدّدا :

« هذا الرجل اسمه الدكتور عادل الطيبي ! ومن لديه شكوى ضد عادل الطيبي ، فليتقدم بها ! »

ارتفع صوت من القاعة : « اذن اين الدكتور نمر علوان ؟ »

أجابت هيفاء من الممثى باصرار : « إنه على تلك المنصة ، أمامكم ! يا محمود حسن ، ألا تعرفه ؟ »

وسقط الضوء على الممثل الشهير الذي لم يقف هذه المرة ، بل اكتفى بالقول وهو قابع في مكانه : « لا ، لا أعرفه . لم أشاهده من قبل » .

ـ « وانت يا سامي الامام ، هلاّ شهدت عليه ؟ »

أجاب هو الآخر : « آسف . لا أعرفه » .

فزعقت هيفاء ، والتهدّج بادٍ في زعيقها حتى أحسست أنها ستختنق : « كلكم كذابون ، ومتخاذلون ، ومتآمرون . كلّكم كلّكم . إني العنكم جميعاً ! »

وقذفت بالميكروفون الذي في يدها الى الارض . واذ انقطع الضوء عنها ، هرعت عائدة إلى مؤخرة القاعة ، وخرجت من أحد الأبواب . وصفقت الباب خلفها بحدّة . وتلا صفقة الباب صمتٌ عميق هبط على الجميع ، وفي الحال انطفأت الأنوار التي كانت مسلّطة على خشبة المسرح ، ولما لم تعد الأنوار ، بدأ التململ في الجمهور ، ثم تحول تدريجيا الى صياح ، وصرخ أحدهم : « افتحوا الأبواب يا عالم ! » وصرخ آخر : « انهم يضحكون علينا ! » وساد الهرج والناس يتركون مقاعدهم ، ولا يجدون سبيلهم الى الخروج . ويبدو أنهم جعلوا يتساقطون بعضهم على بعض .

في هذا الظلام الدامس الصاخب ، احسست بيد مرافقتي تندس في يدي ، وتسحبني من مقعدي بثقة ، وتقتادني جانبيا كأنها ترى طريقها

واضحا من خلال السواد الحالك ، ورئيس الحفل يلحق بي ، ممسكا بذيل سترتي ، ويعثر على عقبيّ . وكان آخر ما سمعت من القاعة ( او من خارجها ؟ ) ، وقد انتهينا الى دهليز خافت الضوء ، اصوات طلقات نارية متوالية ، عقبها الصمت من جديد . وعادت الأنوار .

قال رئيس الحفل لمرافقتي : « لم يكن هذا في الحسبان » .

فجابهته بقسوة ، قائلة : « ما زلت غبيا ، وأحمق ! » بلع الإهانة ، وقال ببؤس شديد :

« أعملت كل جهدي ، مؤملا أنك سترضين عني هذه المرة » .

زجرته دون هوادة :

« انصرف ! لا اريد ان ارى وجهك القبيح . عد الى جماعتك في الحظيرة ، ولا تفارقهم الى ان تسمع مني . فاهم ؟ » .

وككلب مطرود يحشر ذيله بين اليتيه ، ذهب متعثراً في خطوه ، بينما اوقفتني بيدها في الدهليز ريثما ابتعد عنا ، واختفى في باب عند طرفه الآخر . ثم سارت بي ، صامتة ، الى الباب الذي يقابله ، حيث اخرجت مفتاحاً من حقيبتها وفتحته . ودخلنا الى غرفة كبيرة مضاءة ، استقبلتنا فيها امرأة لم ادرك ، للوهلة الأولى ، من هي .

تقدمت مني ضاحكة ، ومدت يدها تصافحني ، وتقول : « أهنئك ! كنت رائعاً ! »

وأحسست كأن حبلاً يلتف حول رقبتي ويخنقني ، لشدة دهشتي . . . إنها هيفاء الساعي ـ أو المرأة التي زعمت قبل دقائق أنها هيفاء الساعي .

وعانقتها مرافقتي وهي تضحك ، وتقول : « بدّعتِ ، بدّعتِ ! » .

والتفتت إليّ ، وهي ما زالت تضحك ، كأننا ثلاثتنا قد انتهينا للتوّ من تمثيل فصل كوميدي نادر ، وقالت : « نمر علوان ؟ عادل الطيبي ؟ س

ص ؟ ما اسمك الحقيقي ، بالله أخبرنا ! »

لم استطع ان اشاطرهما الفكاهة . إنهما ماكرتان ، رهيبتان ، وعليّ ان أقاومهما ـ إلى أن يتضح لي الغرض من كل ما رأيت . فأجبت :

« أخبريني انت ما اسمك اولاً ؟ طيّرتِ عقلي ! »

أغرقتا كلتاهما في المزيد من الضحك قبل ان تسعفني مرافقتي بالقول : « سمّني ما شئت . هيفاء ، لمياء ، عفراء . . . عفراء ! هذا اسم جميل . نعم ، اسمي عفراء ، وصديقتي غريمتي هذه ، كما تذكر ، اسمها هيفاء » .

قلت غاضباً : « طيب ، طيب . انت ايضاً سميني ما شئت . سميتني عادل الطيبي . إنه اسم جيد » .

فأردفت هيفاء : « على الأقل مؤقتاً . ولو انني أفضّل نمر علوان . نمر . . . الاسم بحدّ ذاته يعضّ . أما عادل ، فلا أظنه يعض . . . »

زفرت بحدة : « أف ! كل شيء هنا يعضّ ! من هم هؤلاء الذين جمّعتموهم في تلك القاعة السوداء ؟ ما هذه المهزلة ؟ »

تغيّرت قسمات عفراء( لا محيد لي عن استعمال هذا الاسم ، الى ان اكتشف اسمها الحقيقي ) ، وعادت اليها جهامتها وقسوتها ، وهي تردد :

« مهزلة ؟ أرجو الا تكون قد خدعتك كلماتي التي فهت بها على منصة المسرح . . . اتريد ان ترى المزيد من هؤلاء الذين تقول إننا جمّعناهم ؟ تعال ، انظر ! » .

خطت نحو ستارة منتشرة بطول أحد جدران الحجْرة وارتفاعه ، ودفعت حاشيتها قليلاً ، ونظرت الى الخارج وكررت :

« تعال . انظر » .

ونظرت من الشق الذي كشفته لي ـ فالستارة تغطي نافذة كبيرة ـ ورأيت فسحة واسعة ، أشبه بصحن كبير في بيت قديم ، ملأى بالبشر ، ما

بين واقف ، ومقرفص ، ومقتعد الأرض . رأيتهم في ضوء نصف القمر الذي كان قد علا في السماء في تلك الاثناء . إلا أن جدران البناية العالية كانت تلقي ظلالاً قاتمة على معظمهم . وفي تلك اللحظة ، دفق عليهم حشد جديد من بوابة جانبية ، يتدافعون وهم يدخلون ، وأغلب الظن ان وراءهم من ينهرهم كالحيوانات . وتبرعت عفراء بالتوضيح : « هؤلاء القادمون ، هم الذين كانوا في القاعة ، اردنا تسليتهم قليلا ، وتثقيفهم » .

- « تقصدين ، تعذيبهم » .
- « تعذيبهم ؟ فكرة غريبة حقا ! »

- « وتعذيبي أنا » .

- « صحيح ؟ هل ألقينا بك الى الاسود امام جمهور يطالب بدمك ؟ »

- « تقريبا » .

التفتت الى زميلتها وهي تهز رأسها : « لا فائدة مع هؤلاء الناس . انهم يصرّون دائماً على أن يسيئوا الفهم ! » .

فقالت هيفاء : « بل يفهمون عكس ما تقصدين ـ على طول الخط ! »

سألتني عفراء بكل براءة : « هل تريد ان آخذك الى الحظيرة ، لتتعرف على جمهورك ؟ »

- « جمهوري السجين ؟ »

- « دكتور عادل ، دكتور عادل ، ما هذا الكلام الفارغ ؟ انتظر قليلاً ، تسمعهم يغنون أجمل الأغاني . قد تكون حزينة ـ ولكنك تعلم أن أجمل الأغاني هي الحزينة . على كلٍّ ، وراءنا واجبات . سنتركك قليلاً وحدك . هنا مجلات ، سلِّ نفسك بها ريثما نعود . وهنا تلفزيون ملون وفيديو ، إن اردت أيهما ، وأشرطة الفيديو هنا » .

قلت لنفسي ، وهما تخرجان : الحمد لله ! سأكون وحدي أخيرا .

وسأخرج الى هؤلاء الناس لأعرف الحقيقة منهم .

تباعدت اصوات اقدامهما إلى ان تلاشت ـ وانتظرت دقيقتين او ثلاثاً . ثم قصدت الباب وفتحته . فوجدت أنه يفضي إلى رواق مسدود فيه بابان . ولما حاولت فتح أحدهما ، وجدته مقفلاً . وكان الثاني أيضاً مقفلاً . فعدت ادراجي الى الحجرة حانقاً ، والقيت بنفسي في كرسي جلدي ضخم وأنا أتأفف . وأغمضت عينيّ مدة من الزمن ، متمنياً لو انني بعد اغماضتي تلك أفتح عينيّ فأرى كل شيء قد تغيّر .

*

لا ، لم يتغيّر في الحجرة شيء عندما فتحتهما . فأسرعت الى الستارة ، وسحبتها جانباً ، عسى أن استطيع لفت نظر من في الساحة إليّ . غير أن الستارة انسحبت عن جدار أصمّ . لم تكن هناك نافذة ! كدت اضرب رأسي بالحائط يأساً ، وأنا اكرر : مستحيل ، مستحيل ! وخبطت بيدي على الحائط ـ إنه حائط حقيقي ، لا ريب فيه . اين النافذة إذن ؟

كانت ثمة ستارة كبيرة مماثلة على الحائط المقابل . فركضت إليها وسحبتها بعنف . واذا النافذة هي هناك ! شعرت بدوار قوي ، ولولا اتكائي على كرسي قريب ، لسقطت على الأرض . تمالكت نفسي ، ونظرت من خلال النافذة ، وقلت : فلأتوقع أيّ شيء ! لن اندهش مرة اخرى ، مهما رأيت ! المهم أن أجد مخرجاً من هذه الورطة .

لم أرَ من النافذة إلا الظلام ، وبضع نوافذ مضاءة في البنيان الكبير الذي يبدو انني كنت في الطابق الثالث او الرابع منه . ( لا بد أنني صعدت ادراجاً لم انتبه إليها ! ) وكما من « النافذة » الأخرى ، خيّل إليّ أنني اطلّ على ساحة من نوع ما ، ولكنها مظلمة . حاولت ان اتبين شيئاً ، او انساناً ، في النوافذ المضاءة ، ولكن عبثاً . اصخت السمع ، لعلني اسمع « الجمهور » الذي رأيته قبل دقائق ـ يغنّي او يعربد ، غير مهم ـ ولكن يبدو ان الزجاج كان مانعاً ، كالجدار ، لا « درفة » تفتح فيه . ولاحظت ان التكييف الهوائي

يعمل داخل الحجرة التي أنا فيها ، ويأتيني بنسيم بليل بارد .

التفتّ الى التلفزيون ، وبكثير من الضجر ونفاد الصبر ، ضغطت على زر التشغيل . واذا جمهور يصفق لرجل يخطب فيهم من على منصة مسرحية . ادرت زر الصوت لكي اسمع ما يقول . لعنه الله ! إنه معطّل ، صورة صامتة لرجل يتكلم بحماس ويداه لا تنقطعان عن الحركة ، وجمهور يقاطعه بالتصفيق . . . محاضرة أخرى ، لا شك ، ولكنها أنجح من محاضرتي . فالتقطت مجلة من على مائدة منخفضة ، وجلست مغتاظاً ، اقلّب الصفحات .

بعد قليل صدرت خشخشة عن التلفزيون ، بعدها تغيّرت الصورة ، وعاد الصوت . فتاة جميلة ـ ألعلّها ساجنتي ، صديقتي ، عفراء ؟ تشبهها كثيراً ، ولو ان شعرها طويل هذه المرة ، وأشقر . ( ولكنني تعلمت ألاّ أجعل من الشعر ، هذا الذي يمكن تغييره من حال الى حال بنصف دقيقة ، دليلا على أي شبه ) . وهي تقول ، وعيناها مسدّدتان الى الكاميرا ، او بالاحرى إليّ أنا ، لأنني أحسست بنظراتها تخرقني وتقلقني : « أيها المشاهد الكريم ، لك الآن ان تجلس مرتاحاً في كرسيّك وتتابع المشهد مصوّرا ، او ان تنظر من النافذة ، وتتابعه على حقيقته . او لك ان تتابع المشهد من النافذة ومن خلال الشاشة الصغيرة معاً : وستجد ان اللقطات المكبّرة على الشاشة أحياناً ستأتيك بمتعةٍ لا تتيسّر لك بالرؤية بالعين المجرّدة . . . »

قمت بسرعة ونظرت من النافذة ، واذا الساحة مرتبة كخشبة مسرح عريضة ، وأنا اراها كأنني في مقصورة عليا في صالة كبرى . وقد سُلِّطت الأضواء بطريقة مسرحية ، بما في ذلك الأضواء العليا ، والجانبية ، والسفلى ، ولكن المسرح خالٍ بالمرّة .

على شاشة التلفزيون كان المشهد هو ذاته . غير انني جعلت ارى ما يشبه النمل الأسود وقد بدأ ينغل على حافة المسرح ، فأرسلت بصري من النافذة الى الاسفل ، لأرى حشدا من البشر ( من اين جاءوا بهذه الأعداد

كلها من الرجال والنساء ومن كلّ الأعمار ؟ ) يتسلقون الى المسرح بصعوبة ، يدفع الواحد الآخر إلى الأعلى ، يساعده ويعيقه في آن معاً . إلاّ أن الصاعدين كانوا يتكاثرون ، وما يكادون يجدون مكانا على الخشبة حتى يأتوا بحركات عنيفة ، رافعين ايديهم في الهواء ، ملوحين بها ، ويتعمّد بعضهم أن يقف تحت ضوء باهر ، ويبدأ الكلام . فيدفعه آخر ليحتل مكانه ، ويبدأ الكلام بدوره ، إلى أن اكتظت الخشبة بمن عليها من الممثلين والممثلات ، وكلهم يتكلمون معا ، في مونولوغ طويل . يتكلمون ؟ الحقيقة هي أنهم كانوا يصوّتون : يزعقون ، ويغنّون ، ويتأوهون كأنهم فقدوا ألسنتهم ، ولم يبق لهم إلاّ ان يصدروا من حناجرهم أصواتا عجماء لا أعرف ما الذي يقصدون بها . كان بعضها يشبه الخوار ، وبعضها يشبه النهيق ، وبعضها كالعواء بالضبط ـ ولكن الصراخ كان هو الأعمّ . وأسمع ذلك كله من خارج النافذة ومن داخل التلفزيون في وقت واحد . ولما ادرت زر الصوت لكي ألاشيه من التلفزيون ، وجدت أنه لا يتلاشى ، بل يبقى على علوّه وفظاعته ، واللقطات المكبّرة على الشاشة اللعينة تؤكد على الأفواه الفاغرة الملتوية ، واللعاب يسيل من زواياها ، والعيون الجاحظة الفائضة بدموعها ، والأصابع المتشنجة الباحثة في الفراغ فوق الرؤوس عن أشياء مجهولة تريد التشبث بها . والصراخ يتداخل ويتنوّع ، ويشتد حدة وفوضى .

سددت اذنيّ بكلتا يديّ ، ولكن الضجيج المرعب بقي يملأ رأسي . أجلت عينيّ حولي ، باحثاً عن قضيب او شيء ثقيل اضرب به زجاج النافذة : عسى ان اكسرها فوق رؤوس الممثلين ، وأضع حدّا لذلك التهريج الشنيع . ولم اجد إلاّ كرسيا قائم الظهر رفعته بكلتا يديّ ، وهويت به بكل ما استطعت من قوة على النافذة . غير ان ارجل الكرسيّ تكسّرت وسقطت عند قدميّ ، وبقي الزجاج منيعاً على حاله . وعندها التقطت إحدى هذه الأرجل ، وضربت بها بكل عزيمتي شاشة التلفزيون ، فتهشّمت . راحت الصورة . ولكن الاصوات استمرت بكل قوتها ونشازها . سحبتُ الستائر

على النافـذة ، وعدت إلى الكـرسي الجلدي الضخم ، يحيط بي الصراخ والخوار والنهيق والعواء ، كما يحيط موج البحر وصخبه بسبّـاح يغرق ولا يغرق . وفي تلك اللحظة صدرت عني صرخة مديدة انشقت لها حنجرتي . وتلويت متعذباً في الكرسي ، وسمعتني أطلق صرخة مجنونة أخرى ، احاول وقفها ولا استطيع . وعند صرختي الثالثة ، شعرت انني اختنق . احتبس عني الهواء ، وغبت عن الوعي ، لمدة لا ادري طولها .

لمـا افقت ، احسست أنني اسمع تنفّسي عـاليا . اوقفت النَّفس في صدري : كان هناك صمت عميق ، سكون شامل ، لا يتخلله إلا صوت التكييف المركزي ، الذي ترسل فتحته ، من فوق الباب ، نسيمها إليّ على رسلها .

كـان التلفزيـون قد سكت ، وانقـطعت الأصـوات من الخـارج ، وقفت ، وبكثير من التردد والفزع اقتربت من الستارة ، ودفعتها قليلاً . لم أر من النافذة إلاّ الظلام في الأسفل ، والنوافذ الثلاث او الأربع المضاءة في العمارة . أصررت على التمعّن في الساحة بحثاً عن أثرٍ للمسرح والممثلين ، ولكن لم يكن هناك إلاّ الظلام . وقبل ان اتراجع عن النافذة ، وقد بدأت أحسّ بألم حاد في رقبتي وحنجرتي ، ربما بسبب صراخي البائس ، لمحت شخصا يتحرك في الاسفـل . لم أتأكـد مما رأيت ، وبقيت اركّـز النظر في الشيء ، او الشخص ، الذي تراءى لي عن ذلك البعد أنه يتحرّك لصق الحائط .

واذا هو يرسل في اتجاهي شعاعا من مصباح يدوي . وأيقنت أنني انا المقصود من حلقة ضوئه ، حين وجدتها تصيب نافذتي وتتحرك يميناً ويسارا ، ووجهي اللاصق بزجاج النافذة في وسطها . أجل ، ان الشخص يقصدني بضوئه ، ويريد أن يقول لي شيئاً . فصحت له من مكاني : « ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟ »

لم يأتني منه أي صوت ، غير أنه أشار بالضوء وهو ينكّسه ويصعّده أن

انزل . . . فسألت بأعلى صوتي ، وأنا أؤشر له بيدي على صدري تأكيداً على معنى سؤالي : « أتريدني أنا أن انزل إليك ؟ »

ثم قلت لنفسي : ولكن ، كيف انزل ، ومن أين ؟ وانطفأ المصباح ، تاركاً أثره المعمي في عينيّ ، لأنني عجزت لبضع ثوانٍ عن رؤية اي شيء في السواد الحالك الذي ساد في الخارج بعد ذلك .

صممت على الخروج ، مهما كلفني الأمر . فتحت الباب وخرجت الى الرواق ، واتجهت فيه نحو الباب الذي الى اليمين ، والذي كنت وجدته قبل مدة مقفلا ، عازما على كسره اذا اقتضى الأمر . أدرت المقبض ، فوجدته يستجيب هذه المرة ، وينفتح ! ففرحت . ولكنني جوبهت بالرجل الأصلع ، ذي الأزرار الذهبية ، وهو يسرع نحوي لاهثاً ، ويقول : « الحمد لله ، وجدتك ! لم اكن أعرف في أية غرفة انت ، ولو انني كنت واثقاً من أنك في احدى غرف هذا الجناح . ولذا فإنني فتحت اقفال الأبواب في الاروقة كلها » .

لم أفهم قصده بالضبط ، وأنا اصاحبه الى درج أخذنا ننزله . فسألته : « كيف فتحتها جميعا ؟ »

- « من غرفة السيطرة . بامكاني أن اقفل او أفتح أبواب المبنى كلها بمجرد الضغط على زر هنا ، وزر هناك . وكنت واثقاً من انك ، حالما تجد الأبواب غير مقفلة ، ستحاول الخروج . المهمّ . . . »

- « ما هو المهمّ ؟ »
- « انت مطلوب في الغرفة الزرقاء » .

- « الغرفة الزرقاء ؟ هل أنت متأكد ، وواثق ؟ » .

وأضفت وأنا أقهقه : « لا شك ان عندكم أيضاً غرفة حمراء ، واخرى خضراء - بعد أن فرغنا من الغرفة السوداء . . . »

فقاطعني بحنق ظاهر :

« كفى سخرية ، دكتور . وتصرّف كما يليق ، أرجوك . . . »

وأخذ يسرع بالمشي ، وأنا مكره على مصاحبته ، ودخلنا رواقا معتماً آخر ، أدّى بنا إلى المزيد من الأبواب . فتح أحدها وقال ، وهو يدفعنيّ الى الداخل دفعا : « تفضل ، دكتور » .

وما كدت أخطو خطوة واحدة من خلال الباب ، حتى اغلقه ورائي بحزم ، لأجد نفسي فعلاً في غرفة زرقاء الجدران ، زرقاء السقف ، زرقاء الستائر ، وقد أضيئت بمصباح على منضدة كبيرة ، ومصباحين آخرين قائمين كل في ركن ، يلقيان الضوء على الأرض . وقد نبهني ذلك الى السجّاد الكاشان الذي ازدانت به ارض الغرفة ـ وكانت كبيرة بعض الشيء ، على قلة أثاثها . ولم أنتبه في اللحظات الأولى الى الشخص الذي كان جالساً على الكنبة في ركن مظلم من الغرفة ، إلى ان بدرت منه حركة غريبة : لقد مدّ ذراعه عالياً ، وأرسل نحو السقف حلقة من النور الساطع في مصباح بيده . . .

ـ « هل عرفتني ؟ » .

كانت لحظة خاطفة اذ هتفت : « سعاد ؟ »

إنها ترتدي فستاناً طويلاً أسود يبلغ قدميها ، ويبلغ ردناه الفضفاضان معصميها .

أطفأت المصباح وقامت إليّ ، وهي تقول : « ماذا ؟ هل خفت ؟ »

قلت : « لا . ولكن . . . اندهشت » .

ـ « لأنني اكتشفت مكانك ؟ »
ـ « هل كنت انت التي تلوّحين لي بالمصباح في الساحة ؟ »
ـ « ومن غيري ؟ »
ـ « وما هذا الفستان الجنائزي ؟ »

ضحكت ضحكة الواثقة من نفسها ، العارفة بأني أحبها ، وبأنني كثيراً ما قلت لها : لن ينقذني من حبك إلّا زلزال او كارثة . قذفت المصباح من يدها ، واحتويتها بين ذراعي ، وقبّلت شفتيها . وانتابني الشعور إذ ذاك ، وفمي يمسح فمها وخديها وصدغيها ، بأنني متعب جدا . . . أحسست بإعياء اكاد معه أعجز عن الوقوف ، فسحبتها معي الى المقعد الطويل ، وأجلستها على ركبتيّ ، وذراعاها ملتفتان حول عنقي .

وهمست ، وفمها على اذني :

ـ « عادل ، حبيبي . أنت مرهق . . . أم أنك مرتعب ؟ »

ـ « عادل ؟ هل قلت ، عادل ؟ »

ـ « أليس هذا اسمك عندهم هنا ؟ »

ـ « سعاد ، هل انت ايضا ضالعة في لعبتهم الشريرة ؟ »

ـ « أبداً ، أبداً ، حبيبي . أنا ضالعة في لعبتك أنت وحدك » .

ومدت يدها من فوقي ، حتى ادركت مفتاح المصباح العمودي الذي بقرب الكنبة ، واطفأته . ومعه انطفأت المصابيح الأخرى . ولم يبق إلا نور أحمر خافت ، يصدر عن نفس المصباح العمودي الذي بقربي . فقلت :

ـ « يبدو أنك تعرفين هذه الغرفة جيّدا » .

ـ همست :

ـ « انا اعرف كل شيء » .

ولفّت ذراعها حول عنقي مرة أخرى ، واطبقت شفتيها على فمي بنهمٍ كنت انا أولى به . وقد استغربت ذلك منها ، لأن عهدي بسعاد أنها تتظاهر دائماً بافتقار المبادرة في الغزل ، والتمنع ازاء مبادرتي ، ولو بعض الوقت ، للاستزادة من حرارتي . ولما استقرّت كفي على حضنها ، انتبهت الى أن فستانها ، من الخصر نُزولاً حتى نهايته ، فيه صف من الأزرار السوداء

الكبيـرة . فرحت أفكّهـا واحداً واحـداً ، وهي تتضاحـك حـول وجهي وتقول : « لا ، لا . . . » إلى أن فككتها جميعاً .

وانحسر أحد جانبي الفستان الضافي ، ساقطاً إلى الأرض ، ليكشف عن فخـذيهـا البـديعـين . وجعلت أتحسسهـا ، صقيلين ، نـابضــين ، لذيذين ، انعشني ملمسهما كأنني جرعت مسكرا اجرى فعله فيّ على الفور . ثم دسست يــدي بينهـما وزحفت بهــا عـلى اللحم المكتنــز الأملس الى الأعـلى ، وهي بدلالٍ تضمّ ولا تضم فخـذيها ، وتهمس : « لا ، لا ، ارجوك . . . » ثم باعدت بينهما قليلاً لكي ترتفع يدي الى اسفل بطنها .

وفي تلك اللحـظة اللذيذة ، اللعينـة ، اطبقت فخذيهـا بقوة عـلى أصابعي ، ثـم ابعدتها عنهما بيـدها ، وطفـرت عن ركبتي واقفة امـامي ، وراحت تضحك وتضحك ، وأنا قابع على المقعد أمامها كالمأخوذ . ومدت يدها مرة اخرى الى مفتاح المصباح العمودي ، وأضاءت المصابيح كلها . وبهرني النور لعدة ثوانٍ بحيث لم أتبين ما الذي أراه بالضبط .

ـ « أبهذه السهولة خدعتك ؟ »

قـالتها واستـأنفت ضحكتهـا الشـامتـة . ورفعت سبـابتهـا بغنـج توبّخني ، كأنني طفل بال في لباسه ، قائلة :

« كيف تفعل ذلك ، هه ؟ وبهذه السرعة ! سعاد ! أصدّقت في الحال أنني سعاد ؟ ألم تتساءل كيف تجسّدت سعاد في هذه الليلة ، في هذا المكان ؟ ألا تخجّل من نفسك ؟ كيف لو كانت سعاد فعلاً هنا ، في هذه الغرفة ، وراء الستارة مثلاً ، ورأت ما فعلت معي ؟ » .

قمت على مهل مقصود ، وقد اجتـاحني تيار من غضب يقـذف بي نحوها لكي امزقها ، وأنا اقاومه ، محاولاً أن أفهم شيئاً واضحاً قبل اقتراف جريمتي . كانت هي المـرأة نفسها ، عفـراء ، لمياء ، لست ادري مـاذا ، والقسم الأسفـل من فستانها الاسـود ما زال منفـرجا عن معـظم ساقيهـا

الأبيضين ، وهي لا تشبه سعاد في شيء ، اللهم إلاّ في وقفتها الفارعة .

تقدّمت نحوها ، وقد شعرت ان يديّ قد تشنّجتا ككلاّبتين سأطبقهما على عنقها ، وصوتي يكاد لا ينطلق من بين اسناني : « يا كلبة ! يا عاهرة ! سأقتلك خنقاً ، يا عاهرة ! . . »

فتراجعت امامي وهي تقول :

« لا بهذه السرعة ، ارجوك . . . لا تسيء فهمي ، ارجوك » .

نبرة السخرية كانت واضحة جدا في صوتها . مما زاد في غيظي .

- « كلبة ، عاهرة . . . سأقتلك ، والله . . . »

- « انت لا تتحمل المزاح . . . ولا الجدّ . . . كفى ، كفى ، يا نمر ، يا عادل ، يا دكتور إكس . . . انتهى الفصل » .

كانت وهي تتراجع امام حركتي نحوها قد بلغت بظهرها الباب . فانفتح لها على الفور ، واختفت من خلاله ، وانطبق عليّ دونها . حاولت فتحه ، ولكنه لم يتزحزح . ضربته بكتفي ، ولم أفلح إلاّ في إيذاء نفسي .

اختنقت غيظاً ، وجعلت أركله بقوة بقدمي . إنهم يعذبونني . لست ادري لماذا . ما الذي يريدون مني ؟ ركبتاي لا تطيقان حملي . انني أنهار لصق الباب ، وأتكوّم على السجادة الكاشان . وأحاول جاهداً ألا أغيب عن الوعي . وصحت أخيراً بصوت انطلق بكل عنفه وعزيمته من حنجرتي : « يا اولاد الكلب ، أخرجوني من هنا ! اخرجوني ! »

سقط وجهي على السجادة ، وأحسستني اتنشّق الغبار وفمي فاغر ، ولا استطيع الحركة ، وقلبي يدقّ بعنف على ضلوعي . بقيت على وضعي ذاك مدة طويلة ، اصغي بانتباه شديد عسى ان اسمع صوتا من وراء الباب ، او من تحت ارض الحجرة ، ولا اسمع إلا لهاثي الحادّ ، وكأنه لا يصدر عني ، بل عن حلق حيوانٍ أجشّ خارجٍ عني ، ويزيد من هلعي .

لكنني بعد حين أخذ لهاثي يخف ، ونبضي يهدأ . وسرى في بدني خَدَرٌ بطيء أتاح لي أن احرّك رأسي ، وأمدّ ساقيّ ، الى ان وجدتني انقلب على ظهري ، واسترخي تماماً ، وأتمنى لو استطيع النوم . ولعلني غفوت بالفعل .

سمعت قفل الباب يتحرّك ، وشعرت ان وراءه أحداً يدفعه بما يشبه الحذر ولكنه يصطدم بي ، اذ كنت مستلقيا لصقه . فتزحزحت على الأرض مبتعدا عنه ، الى ان انفتح .

- « ها ! أنت هنا ! على الأرض ؟ لماذا يا دكتور تنام على الأرض ؟ تأخرنا عليك . آسف . آسف . . . » .

انحنى فوقي صاحب الازرار الذهبية ، وناولني يده ليعينني على النهوض ، فقلت له بصوت ضعيف اكاد لا اسمعه حتى أنا :

« اتركني وشأني . اتركني » .

- « هيا ، تفضل ، قم » .

- « اتركنى في حالي » .

« لا ، غير معقول . هات يدك يا دكتور . لعلك وقعت . هل تأذيت ؟ »

أنهضني ، وجعل ينفض الغبار بعناية عن الصدر والكتفين من سترتي . ولحظت ان رجلاً آخر يقف بالباب يتفرّج على ما يجري .

استدار ذو الازرار نحوه ، ثم قال له باحترام زائد : « تفضل ، سيدي . يظهر ان الدكتور نمر وقع على الارض بسبب ما ، ربما مغشيًّا عليه » .

عندما دخل الرجل ، ادركتُ انه رئيس الحفل الذي كانت « صديقتي » قد أهانته بعد انتهاء مهزلة « المحاضرة » ، وطردته من امامها ، إنه الآن رجل آخر : بادي الثقة ، جهم ، يحاول ان يوحي إليّ بأنه أهمّ

بكثير مما أتصور . انطلق ، دون الالتفات إليّ بنظرة ، إلى المنضدة ، وجلس وراءها جلسة من يقول إنه اعتاد تصدّر الجلسات والاجتماعات والنقاشات . وأشار بسبابته الى صاحبي قائلا : « أشعل الأنوار » . ثم سحب درجاً في المنضدة وأخرج رزمة من الأوراق ، دفع نحوها مصباحه المنضدي ليستقر المزيد من النور عليها ، بينما انصاع صاحبي لأمره ، ولمس مفتاحاً في الجدار ، أغرق القاعة بضوء قوي .

ثم قال لي : « تفضل ، اجلس هنا » .

فاقتادني الى كرسي مستقيم الظهر قرب المنضدة جلست عليه ، وأنا انظر الى رئيس الحفل ، وقد بدا لي ، لأول مرة ، أنني اعرفه . اعرفه منذ زمان . ام أنني واهم بسبب وضعي المزعزع ؟ أليس هو ـ لعنة الله عليه ! لا استطيع تذكّر اسمه ! ولما نظر إليّ أخيراً ، محدقاً إلى عيني ، قلت له :

ـ « ألست انت . . . اوه ، إني اعرفك . . . »

ـ « التقينا في الساحة الكبرى » .

ـ « ولكن اسمك . . . »

ـ « غير مهم ، دكتور نمر . انما المهمّ ـ » قاطعته : « لا ، مهمّ جدا أن أتأكد من هويتك » . هز رأسه ، وقد التوت شفتاه بابتسامة استخفاف :

ـ « هويتي ؟ نحن مشغولون بك أنت ، وتريد أن تعكس الآية علينا ؟ »

ـ « مشغولون بي ؟ كما فعلت قبل قليل استاذتك المحترمة ؟ »

بان عليه الغضب ، وصاح محتدًّا : « اسكت ! إنك تهذي ! » .

ـ « ألم ترها وهي تخرج هاربة من هذه الغرفة ؟ وأنت ، يا صاحب الازرار ، ألم ترها وانت في طريقك الى هنا ؟ »

فقال ذو الأزرار ، وهو ما زال واقفاً الى يميني ، مخاطبا رئيس الحفل : « إنه واهم ، سيدي . لم يكن في هذه القاعة أحد غيره قبل وصولنا » .

فأجاب : « أدري . مشكلته انه خصب الخيال ، وسريع التوهم . . . اسمع يا دكتور . سأطمئنك . أنا عزّام ابو الهور ، هل سمعت هذا الاسم من قبل ؟ ».

قلت : « عزام ابو الهول ؟ لا ، لا اظن » .

- « أبو الهور . . . بالرّاء ، هل ارتحت الآن ؟ » ثم نقر بأصابعه على الاوراق التي امامه ، وأضاف : « اذن ، انتهينا من النقطة الأولى ، والآن ، إلى النقطة الثانية » .

لا حاجة بي إلى القول إني كنت مرهقاً ، ومتألماً ، ومليئاً بالتقزز. ولم يكن يهمني من هذا الرجل المزيّف ( لأنني كنت واثقاً من انه يتظاهر بما لا يتصل بشخصه الحقيقي ، وأنه ربما مرغم على تقمص دور رجل هو نفسه لا يفهمه ، او لا يهمه ان يفهمه ، وأنه بعد تلك الإهانة من فتاة جميلة ، غادرة ، لا تتردد في صفع رجل مهيب مثله إذا اقتضت الحاجة ، لم يبق لديه ما يجعله ذا أثرٍ في نفسي ، او ذا مقدرة على استعادة احترامي لكرامته المهدورة ) - أقول ، لم يكن يهمني من رجل في مثل هذه الحال ان يعدّد نقطة ثانية وثالثة ورابعة ، كأنه سيد العقل والمنطق في تلك الغرفة الزرقاء - الزرقاء لغير ما هدف ٍاو غرض . فليقل ما يشاء ، هذا ما قلته لنفسي . وسواء اكان اسمه ابو الهور او ابو الهول او ابو البول ، فأنا لن أناقشه في شيء ، ريثما يُفتح لي باب ما ، أخرج منه بمحض ارادتي .

*

لعله أحسّ بما يساورني من هواجس . فضيّق عينيه وهو يركزهما في وجهي ، ثم بسط اساريره بغتة ، واخرج سيكاراً من علبة فخمة امامه ناولني إياه . وضعته بين شفتيّ ، وناولني قدّاحة فأشعلته ، ثم اعدت اليه القداحة ، فوضعها في جيب سترته ، وقال ، محاولاً شيئاً من بشاشة مصطنعة ، للرجل الواقف خلفي :

« جئنا بقهوة ، يا عليوي » .

وما كاد عليوي يخرج ، حتى سلّط عليّ بشاشته المصطنعة لبضع ثوان ، وقال ، وأنا انفخ دخان السيكار الهافاني ، مهيئا نفسي لشرود ذهني لم يكن لي منه بدّ :

« النقطة الثانية ليست اهمّ ما لديّ لأقوله لك ، ولكن علينا بالتسلسل الذي يوضّح الأمور ، ويضع النقاط ، كما يقولون ، على الحروف . أنا يهمني ألا تلتبس عليّ الأمور لأنني ، اذا التبست عليّ أنا ، فكيف لي عندها أن اكون واضحاً إزاء الآخرين ؟ أنت لا تستطيع ان تُفهم إنساناً قضية معينة لم تفهمها انت اولاً : وإلا كنتَ كمن ينطق بالألغاز ، لا لحكمة منه ، بل لأنه يريد إيهامك بأن أفكاره عميقة يصعب توضيحها وتوصيلها . . . أنت معي ؟ لو طلب اليك مثلا ان تكتب كتابا ، او قل دراسة مطوّلة ، عن موضوع غريب عليك . ما الذي تفعله ؟ تراجع المصادر التي تعالج هذا الموضوع . طيب . واذا وجدت المصادر قليلة ونادرة ، تشبثت بهذا القليل النادر ، واستخرجت منه شيئاً يفي ولو ببعض حاجتك ، ولكن اذا وجدت ان الكتب كلها التي تراجعها لا تتحدث عن هذا الموضوع ـ أعني ، اذا وجدت ان لا مصادر لديك او لدى الآخرين تعينك في دراستك ، ماذا تفعل ؟ واحداً من اثنين : إما ان تعتذر ، فلا تكتب شيئاً . أو ، أو ـ انتبه ، أرجوك لما أقول ـ تختلق من عندياتك كلاماً ، قد تزعم انك استخلصت بعضه من مصادر ( وهمية بالطبع ) ، او أنك قد تختلق وتلفّق ، ولتذهب المصادر المزعومة كلها إلى الجحيم . هذه الحالة هي التي نجابهها في معظم نشاطنا اليومي . الاختلاق ، التلفيق ، أو ، اذا أردت كلمة أجمل ، الابتكار . . . أنت لست معي ؟ »

توقف بانتظار رد فعل مني .

« قلت : « نعم ؟ » .

ـ « أنت لست معي ؟ »

ـ « بلى ، بلى . استمر . . أرجوك » .

وسحبت نَفَساً من السيكار ، ثم نفضت رماده ، بلا مبالاة ، على السجادة الكاشان . اما هو فقد رفع رزمة الأوراق التي امامه بين يديه ، لكي القي عليها نظرة جيدة ، وقال :

« هـذه الأوراق مثل عـلى مـا أقـول . لا ،لن ازعجـك بقـراءتهـا عليك ، ولن ارهقك باعطائها لك لكي تـطالعها فيـما بعد . هي هنـا ، كدليل ، كـوثيقة . فـالتوثيق فن بـدأنا اليـوم نعرف خـطورته في حيـاتنا الاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية . تاريخ يتراكم في تراكم الكلمـات والأوراق ، وعلينـا ان نعرف كيف نجعـل هـذا الحبـر المسكـوب مفيـدا لعصرنا ، والعصور القادمة . العفو ! أقول هذا مجـازاً . فهذه الأوراق ، كما ترى ، معظمها مطبوع بالآلة الناسخة . والابتكار ، بل الإبداع ، أمر أساسي فيها . نحن هنا نكاد نقلّد الباري عزّ وجلّ ، في أننا بين حين وآخر نخلق أشياء من العدم . . . آه ، حضرت القهوة ! »

لم أفهم كلمة مما نطق . كنت في وضعي غير المريح عـلى الكرسي المستقيم الظهر انظر معظم الوقت الى شفتيه تتحركان ، بدلاً من عينيه . وتساءلت بيني وبين نفسي ، هل ان اسنانـه النضيرة هـذه حقيقة ؟ غـير معقـول . انها اسنان تلتمـع كالـلآلىء ـ اصطنـاعيـة ، ولا شـك . آه ، القهوة ! ومعها كوب من الماء ! قدّمهما لي عليوي ، ابو الأزرار الذهبية ، من على صينية فضية تتألق كما تتألق صلعتـه الشاسعـة . وضعت فنجان القهوة على المنضدة ، وجرعت كوب الماء دفعة واحدة ، بينما راح عليوي يقدّم فنجان القهوة الآخر للسيد أبو الهور . ثم همس بشيء في أذنه . ولم يجبه ابو الهور اول الأمر ، وبدا كأنه يتردد في الجواب . ثم قال له بصوت منخفض : « لا مانع » .

فعاد عليوي إليّ ، وأخرج من جيب سترته الداخلي ظرفاً سميكا ، نـاولني ايـاه ، وخـرج ، وكنت قـد أخـذت رشفتـين من قهــوتي ، التي أحسست أنها ، بعد الماء البـارد الذي جـرعته ، لـذيذة ككـوثر الجنة .

نظرت الى الظرف ، وأخذت رشفة اخرى من القهوة .

وعاد أبو الهور إلى الكلام ، والفنجان في يده ، يرشف منه بين حين وآخر ، دون ان يمهلني ريثما افتح الظرف لأقرأ ما في داخله . وضعته أمامي على المنضدة . ولحظت ان ما كتب على ظاهره هو :

« الدكتور عادل الطيبي »

وقد شطبت كلمتا « نمر علوان » بشكل يجعلهما مقروءتين رغم الشطب ، تتلوهما كلمتا « عادل الطيبي » كتصحيح لاحق .

وأبو الهور يسترسل :

« . . . بالطبع نحن نفاجأ أحياناً بما ليس في البال . وما نقضي أياماً في التمهيد له ، قد تهب عليه عاصفة من حيث لا ندري ، فتطير ترتيباتنا له في لحظة واحدة ، كما تطير اوراق الشجر في الريح . . . ولكن حتى هذه العواصف المفاجئة نفسها تكاد تكون جزءا من خطة العمل الموضوعة أو ، إن شئت ، جزءا من اللعبة . وأنا لا أقصد بكلمة « اللعبة » أننا هنا نمضي الوقت للتسلية . اللعبة هنا أمر خطر : اشبه بلعبة الشطرنج التي تتطلب مزيجاً من الذكاء والدهاء ، مزيجاً من المغامرة والحيلة ، والتي اذا خسرتها قد تخسر معها رأسك . أي نعم . وكلامي هذا ، هذه المرة ، ليس مجازا . بل أرجو ان تتاح لك فيما بعد،دقيقتان لتطلب فيهما إلى عليوي أن يدخلك الى الغرفة الفخرية ، لترى كيف سجّلنا بالخط الديواني أسماء الذين لعبوا هذه اللعبة ، وخسروا . إنها غرفة جميلة ، لكثرة ما فيها من بدائع الخط التي دوّنّا فيها عدداً من روائع الحكم التي يزخر بها تراثنا ، والتي يحسن بنا أن نبقيها حيّة في أذهان الناس ، تذكرةً وعبرة . وقد استخدمنا ، في الآونة الأخيرة ، ثلاثة رسامين معروفين لرسم صور هؤلاء « الخاسرين » الطيبين ، في لوحات زيتية متناسقة ، سنعلّقها بترتيب زمني . انهم ينقلونها ويكبّرونها عن صور فوتوغرافية عادية ، ولكنهم يجعلون منها روائع فنية يلذّ للمشاهد ان يتأمل في كلٍ منها ، ويستلهم

نظرات وقسمات كل هؤلاء الذين غامروا ، وفقدوا رؤوسهم ، ولكنهم لم يفقدوا الذكر الدائم لمن يريد ان يستعرض ذكراهم ـ ذكرى مجازفاتهم ، وأخطائهم ، ونهاياتهم . . . » .

بدا لي أن عزّام أبو الهور لن يكفّ عن الاسترسال ، وأنه يتلذذ بفيض أفكاره عليّ ، وهو لا يعلم انني شارد عنه ، اكاد لا أتابع شيئاً مما يقول . فاضطررت الى مقاطعته :

« العفو ، استاذ عزّام . هذه الرسالة التي تسلمتها الآن ، الا تظن ان الأفضل ان أفتحها ، لأعرف ما فيها ؟ » .

لم يرق له أنني جررته من علياء فصاحته إلى قاع اللحظة الانية التي قد تنسف افكاره كلها . وقال مستغرباً : « الرسالة ؟ آه ، الرسالة ! »

ثم تجهّم وأضاف :

« قال لي عليوي إنها مستعجلة . آسف ، أخذنا الكلام ، دكتور . تفضل ، افتحها » .

سحقت رأس السيكار في المنفضة ، والتقطت الرسالة . ولكن ما كدت افضّ غلافها ، حتى انطفأت الأضواء كلها ـ حتى الضوء الأحمر الخافت الذي كان قد أعانني في اثناء مغازلتي الفاشلة لعفراء . فصحت ، إذ هجست بأن المسألة مرتبة ومقصودة :

« استاذ ، انت اطفأت الأضواء . لأنك لا تريدني ان أقرأ الرسالة » .

فأجاب من مكانه :

« ابداً ، ابداً . لعل الكهرباء هي التي انقطعت ، لسبب ما ، مع ان هذا نادراً ما يحدث . ثم إن عندنا مولّدات لمثل هذه الطوارىء » .

ـ « أين قداحتك ؟ أشعلها لنرى طريقنا » .

ـ « قداحتي ؟ أنا لا أحمل قداحة » .

ـ « عجيب ! ألم تعطني قداحتك قبل بضع دقائق لأشعل السيكار ؟ »

ـ « أبداً . أتصور انك انت الذي لديك قدّاحة ـ او ربما علبة كبريت ؟ »

فقلت ساخطاً :

« انا لا أحمل قداحة ولا علبة كبريت . ولعبتك هذه مفضوحة ، وغير ضرورية » .

وقمت من على الكرسي ، محاولا ان اتذكر مكان الستارة لأسحبها جانبا . ثم تذكرت أنها وراءه تماما . واذا هو يقول ـ وكأنه قرأ ما يدور في دماغي :

« الستارة ورائي . ولكنها لا تستر أية نافذة . كما في معظم هذه الغرف . هاك ! »

وسمعته يدفع كرسيه ويسحب الستارة ، عبثاً . وتذكرت ان صاحبتي كانت قد فاجأتني في القاعة بمصباح يدوي ، لا اذكر أنها التقطته عن الكنبة عندما هربت مني . فتراجعت في الظلام بحذر الى حيث اذكر وجود الكنبة : كانت ، بتقديري ، على بعد خمسة او ستة امتار الى الخلف مني . وعثرت عليها . مررت بكلتا كفّيّ على المقعد الوثير بحثاً عن المصباح . . . ثم ركعت ، وجعلت ابحث عنه بتحسّس الأرض على طول الكنبة ، آملاً ان يكون قد سقط ارضا بحركة الفتاة المباغتة عندما قفزت عن ركبتي . غير أن كفي وقعت على الحذاء من شخص منتصب فوقي . . . قلت :

« ها ، هل عثرت على المصباح ؟ »

ـ « أي مصباح ، يا دكتور ؟ سيطر على أعصابك . وسأحاول ان اجد الباب وافتحه ، فنخرج معا » .

جلست على الكنبة ، وقلت :

« حتى لو عثرت على الباب ، ستجد انه مقفول . هل لديك مفتاح ؟ أكيد لا . وهو مقفول كهربائيا أيضا ، في الأغلب » .

لم يجب ابو الهور ، وسمعته يتحرّك ، ويظهر أنه عثر على الباب ، وأخذ يجرّ مقبضه ، فيطقطق ولا ينفتح ، وهو يتمتم « أبوك وابو الذي قفلك معك ! » ثم راح يخبط على الباب بقبضتيه ، وأنا اقول له :

« مهلاً ، مهلاً . . . سيطر على أعصابك ، يا استاذ ، كما نصحتني أن أفعل . لم هذا الضجيج كله ؟ لم لا تأتي وتجلس على هذا المقعد الوثير ، الى ان يفرجها ربنا ؟ تعال وارو لي قصة حياتك . . . »

جاء صوته نزقا :

« حياتي ؟ جحيم من اولها إلى آخرها . أتدري ، دكتور ؟ أرخص ما في الحياة هو الموت . أما أنا ، فيتعزّز عليّ ابن الكلب هذا . . . أنا لا أشك مطلقاً في ان هذه من أفاعيل الحقير عليوي » .

وكان لي هذه المرة ان اضحك عن حق :

« عليوي ؟ أبو الأزرار المسكين ؟ »

ـ « لا تغرّك مسكنته . حيّة تحت التبن . يطمح في وظيفتي ، القوّاد . مستعد لأن يقتل أباه ليحصل عليها . يقوّد لكل من في المؤسسة ، رجالها ونسائها ، لا فرق . خذ حذرك منه . عامله كما يستحق . ابصق في وجهه ، ثم ناوله قرشين ، لكي تستطيع ان تجدد إهانته . . . اوه ، لا فائدة من هذا الباب ! أين انت ؟ » .

قلت : « هنا ، هنا » .

وتعثّر إلى ان وقع في حضني ، دفعته جانباً ، واستقر قربي على الكنبة ، وهو يلهث ويتأفف . ومع أنه كاد يلتصق بي ، شعرت ان بيننا بُعداً سحيقاً لا أريد له ان يُختصر . خشيت ان يلمسني ، وقد عاد إليّ هدوء من نوع ما اردت له ان يطول ، مؤملاً أن استردّ به القدرة على تحمّل ما أنا فيه دون ان افقد القدرة على التفكير . تمتمت ساخراً : « السجّان والسجين . . . » ثم رفعت صوتي :

« من الذي قال : « يشركك التعس فراشاً مع أغرب الناس طباعاً . . . » ؟ »

لم يجب ، وبعد قليل خفّ لهاثه ، ثم انقطع . فحمدت الله على صمته ، وصمتُّ أنا أيضاً معه . قلت لنفسي : يتمنى الموت ؟ كيف لو يموت الآن ، في هذا السواد الحالك ، وهو لاصق بي ؟ وبعد قليل ، إذ لم يأت بأية حركة ، لمست ذراعه برأس اصبعي . إنه ما زال هناك ، في سكون عميق . قال قولته وانتهى ! انتهى ؟ أصابني الهلع . ايكون قد مات بسكتة قلبية ؟ صحت : « ابو الهور ، ابو الهور ! » ودفعت قبضة يدي في ذراعه . فانطلق من منخريه شخير كخوار الثور ، طمأنني بأنه ، على الأقل ، لم يلفظ بعد انفاسه الأخيرة .

بعد مدة طويلة ـ تمنيت لو استطيع النوم فيها ، دون طائل ـ عادت الأضواء الى الغرفة . او ، يجب ان اقول ، الى القاعة . لأنها بانت ، وقد عميت للحظتين من حدة النور ، فسيحة ، مستطيلة ، باهرة ، كما يليق بغرفة زرقاء ـ زرقاء كلها ، من السقف ، إلى الجدران ، الى الستائر والأثاث . كان ابو الهور في سبات عميق ، وقد انكفأ رأسه على صدره ، ومال جانباً على المقعد ، وشخيره الخافت منتظم مع تنفسه . هززته من كتفه ، فما كان منه إلاّ أن سقط جذعه على طول الكنبة في نوم ثقيل ، وتغيّر الإيقاع في شخيره على الفور . قمت الى المنضدة حيث كان الظرف الذي أردت ان أقرأ ما في داخله ، وأخرجت منه ورقة مطوية عدة طيّات ،

فتحتها ، واذا بها بحجم ورقتي فولسكاب ، ملأى بالكتابة . فتلهفت لقراءتها قبل أن تداهمني « عاصفة » أخرى من العواصف التي تحدث عنها أبو الهور .

قرأت :

« الدكتور نمر علوان المحترم ،

« نحن الموقّعين أدناه نعلمك أننا في انتظارك بفارغ الصبر . لا تصدّق كل ما تسمعه أو تراه في الغرفة الزرقاء . وأسرع بالمجيء . أسرع ! »

وقد رصفت الصفحة الكبيرة العريضة بعد ذلك بحشد من التواقيع التي لم استطع ان أقرأ واحداً منها . تواقيع متوالية ، ومتداخلة ، وبأقلام متباينة ، فيها الأزرق والأسود والأحمر ، ذكرتني « بالمضابط » التي كان يقدّمها المخاتير في الأزمنة الخالية الى المسؤولين ، حين يريدون البرهان على ان مئات الرجال مع عائلاتهم يؤيدونهم في مطالبهم « العادلة » . . . فعلة أخرى من أفاعيل عليوي ، ولا شك ! إنه صاحب نكتة ، هذا الثعبان الأملس ، هذا الحية تحت التبن . لو انه يعود لسألته : ما الغرض من هذه الورقة الطويلة العريضة ؟ ماذا أفعل بها ؟ أين اذهب الى هؤلاء الذين هم في انتظاري بفارغ الصبر ؟ مزاح ثقيل !

وتعبيراً عن احتقاري لهذا الضرب من المزاح ، مزّقت الرسالة ، وكوّمت مِزقها على المنضدة .

نظرت الى أبو الهور ، وهو يغطّ في نومه ـ وقلت : ما أسعده ! ـ وأدركت انني لن استطيع الافادة منه بشيء . وخطر لي ان اجرّب فتح الباب ، ولكنني صرفت النظرْ عنه ، وقلت فلأجرب سحب الستارة ، كما فعلت في الغرفة السابقة . ولكن عيني وقعت على رزمة الأوراق التي كان ابو الهور قد سلّط عليها مصباح المنضدة . فمددت يدي اليها ، لأقرأ بعضها ، فهي ولا ريب تقاريرهم عني .

كانت اوراقاً صقيلة ، مطبوعة في معظمها طباعة انيقة بالآلة الكاتبة كما قال ، وخيِّل إليّ أنها في الأغلب نسخ مصورة . ولكنها لم تكن باللغة العربية ، ولا الانكليزية . ولا الفرنسية . لم ادر اية لغة كانت تلك . لم تكن بالروسية او احدى اللغات السلافية ، فأنا أعرف أبجديتها . كانت بحروف لاتينية ، ولكنني لم أفهم منها كلمة واحدة . قلّبتها بسرعة . إنها كلها بهذه اللغة الغريبة ـ المختلفة ، ربما ؟ « المبتكرة » ؟ ألقيت بها على الأرض عنّي ، وتوجهت نحو الستارة ، وبعنف سحبتها جانبا الى اليسار حتى النهاية . واذا الأمر كما حدست . لقد كشفت عند نهايتها عن باب مصبوغ بالأزرق ، قبضته ، رغم زرقتها ، ظاهرة جدا . مسكين ابو الهور ! لعله هو أيضاً غريب في هذه المؤسسة ، ولا يعرف اسرارها ؟ ما كدت أضع يدي على قبضة الباب واديرها ، حتى انفتح . . .

دخلت الى غرفة اخرى اشبه ما تكون بغرفة انتظار في عيادة طبيب : فعلى امتداد الجدران الأربعة الشديدة البياض مصاطب منتظمة لجلوس المراجعين ـ الذين لم يكن هناك منهم أحد في تلك اللحظة . وقد عُلِّقت على الجدران صور مطبوعة بالألوان لأمهات ورديات الخدود يرضعن اطفالهن ، ولقطط سيامية سمينة ازدانت اعناقها بالأشرطة البنفسجية ، مما اكد لي انطباعي بأنها غرفة لانتظار المرضى . هل كانت الغرفة الزرقاء هي غرفة الطبيب ؟ ام أن الباب الذي في الجدار المقابل يؤدّي الى غرفته ؟ يممت شطره رأساً ، وفتحته .

غرفة أخرى ، بيضاء الجدران ، ولكن خالية من كل أثاث ، فيما عدا كرسيا واحدا جلس عليه شاب وسيم ، يرتدي مريولاً أبيض . وفي يده كتاب يقرأ فيه . لعله الطبيب ؟ او الممرّض ؟

رفع بصره نحوي ، وبدا لي أنه اندهش لرؤيتي . غير انه بقي جالساً مكانه . وسألني :

ـ « أتريد ان تقابل الدكتور ؟ »

قلت : « أي دكتور ؟ »

فأبدى دهشته مرة اخرى : « اذن كيف أتيت هنا ، وأنت لا تعرف اي دكتور تريد ان ترى ؟ »

قلت لنفسي : فلأجرب حظي معه . وسألته :

« الدكتور نمر علوان ، هل هو موجود ؟ »
أغلق الكتاب بين يديه ، واجاب مبتسما :

« الدكتور نمر علوان موجود جدا . إنه واقف أمامي . قبل ساعتين رأيتك على شاشة التلفزيون ، دكتور . هل انت تمتحنني ؟ »
ـ « أبداً ، أبداً . . . وأنت ، هل انت طبيب ، ام . . . »

ـ « أنا طبيب . لكنني منعت من مزاولة المهنة قبل بضعة اشهر . أترى معطفي الأبيض هذا ؟ انني ألبسه باصرار ، لكي اتذكر دائماً واجبي تجاه الانسانية المعذبة » .

قام عن كرسيه ، وتقدّم مني ، وأردف :

ـ « تفضل ، اجلس » .
شكرته وقلت :
ـ « ارجوك ، عد الى كرسيّك » .

ـ « سئمت الجلوس . وسئمت الانتظار . أتدري من يشغل الغرفة وراء هذا الباب ؟ »

فأجبته بأقصى ما استطعت من لهجة الجد :
ـ « الانسانية المعذبة ؟ »
جابهني بجدّ مماثل :

ـ « لا في هذه الغرفة . ولا في هذا الطابق . يبدو لي انك ضللت الطريق » .

ـ « قليلاً » .

ـ « غريب ، مع ان هناك لافتات على معظم الأبواب » .

ـ « لافتات ؟ لم أر واحدة تدلني على المكان الذي اريده » .

ـ « هذا عصر التكنولوجيا . حتى الاستعلامات تبرمج في رموز . والمفروض انك تعرف هذه الرموز مسبقاً ، فتتأمل فيها ، وتتبع ما يرافقها من أسهم وأضواء خضراء وحمراء وصفراء ، فتصل الى حيث تريد » .

ـ « واذا لم تكن تعرف الرموز كلها مسبقاً ، ولا تعرف أي مكان تريد ؟ »

ـ « ها ها ! كان الله عندئذ في عونك ! ولكن فيم القلق يا دكتور ؟ عاجلاً او آجلا ، ستصل الى حيث تريد . لأنك ، دون وعي منك ، تريد مكاناً معيّنا يخشى وعيك تحديده لك . اي انك ، بجهلك الذي تزعمه ، انما تراوغ . وهي مرواغة مشروعة ، لأن فيها إنقاذا لك من آلام انت في غنى عنها . . . أنا لم اسمع باسمك ، ولم أرك ، إلا هذه الليلة . ومع ذلك جعلت أعرف عنك الكثير » .

ـ « عجيب . أنت أشطر مني » .

ـ « أبداً . أترى هذا الكتاب ؟ »

ورفعه امام عيني لأقرأ عنوانه : « المعلوم والمجهول » . قلت :

ـ « لم أره من قبل » .

ـ « فيه فصل طويل عنك » .

ـ « تقصد ، فيه فصل طويل عن نمر علوان » .

ـ « نعم . وكنت منهمكا في قراءته عندما دخلت عليّ . أية مصادفة غريبة ! » .

ـ « واذا قلت لك إنني لست نمر علوان ؟ »

ـ « غير مهم ! »

ـ « يا سلام ! »

ـ « المهم هو أنني ، أنا الدكتور راسم عزّت ، مقتنع بأنك نمر علوان . ولو لم تكن إياه ، لما كنت الآن واقفاً معي في هذه الغرفة . ثم اني لست ادري لماذا تنكر ، يا دكتور . انظر الى هذه الصورة . ( وفتح الكتاب ، وقلّب اوراقه إلى ان عثر على صورة توقف عندها ، ورفعها امامي لأراها بوضوح ) . اقرأ الشرح تحتها : الدكتور نمر علوان » .

خطفت الكتاب من يده ، وانعمت النظر في الصورة . إنها حقا صورتي ! فصحت :

« تزوير ! تزوير اجرامي ! »

ـ « ولكن المؤلف يمتدحك ، على الأكثر . فلماذا يزوّر ؟ »

واستعاد الكتاب مني ، واردف :

« أنا أعرف انك تقول إن اسمك عادل الطيبي . لعلّ لك غرضاً في ذلك . هذا من شأنك ، ولن اتدخل في خصوصياتك » .

ـ « واذا قلت لك ان اسمي ليس عادل الطيبي ؟ »
ـ « صادق . لأنك نمر علوان » .
ـ « ولا نمر علوان » .
ـ « كما تريد . لن يؤثر ذلك في قناعتي الشخصية » .
ـ « أتعرف يا . . . دكتور . . . آ . . . »
ـ « راسم عزّت » .
ـ « اتعرف يا دكتور راسم أنني لا أهتم بقناعتك الشخصية ؟ »

ـ « واحدة بواحدة ، مما يذكّرني بمقولتك : « آراؤنا الحقيقية تنبع من الداخل ، وتصبّ فيه » » .

ـ « أأنا قلت ذلك ؟ »

ـ « لا تتواضع يا سيدي . وقد قرأت المناقشة التي جرت بينك وبين بعض تلاميذك ، إذ قلت ، فيما اذكر : « ليس الانسان جزيرة مستقلة بذاتها ، نعم ، ولكن اي برزخ ضيق يصل بينه وبين الآخرين ، وعبر أي بحر هائج يقوم هذا البرزخ ؟ » .

فتضاحكت ، رغم الجد الذي حمل نفسه عليه صاحبي ، وقلت :

ـ « اي والله ! عبر أي بحر هائج يقوم هذا البرزخ ؟ وكيف نعبره ؟ والآخرون ، هل يعبرونه نحونا ؟ ألا يتساقطون في الأمواج التي تطغى عليه ، ويغرقون ؟ هل نسمع أصواتهم من الطرف الآخر ؟ »

ـ « ولكنك تؤكد أننا نسمع أصواتهم ، بل نراهم يلوّحون لنا اينما التفتنا ، رغم أن العاصفة قد تبتلع صرخاتهم . . . إنه رفضك الأخير لحتمية المأساة » .

ـ « رغم فواجع الدنيا كلها ؟ »

ـ « هذا ما تقوله أنت . وفي حياتك وكتاباتك أدلّة كثيرة على ذلك » .

لم أذكر أنني قلت شيئا من هذا القبيل . ولم أعرف ما الذي يقصد إليه بكتاباتي . أية كتابات هذه ، وأنا لم أنشر يوما مقالا ، ناهيك عن كتاب ؟ ولكنني راجعت نفسي للحظتين ، وتساءلت : ألا يجوز أنني فعلاً نشرت يوما شيئاً ما ـ كتاباً او دراسة ، وربما اكثر ، ونسيت ؟ غير أنني رفضت هذا الخاطر الطارىء ، وصرفته عن ذهني . وقلت : « تعني ، لو أنك صرخت الآن في هذه الغرفة ، لوجدت من يسمعك ؟ »

ودونما تردد ، أجاب :

ـ « لا شك . ولكن . . . »

ـ « ولكن ماذا ؟ »

ـ « ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان الذي يسمعني سيأتي راكضا

الي » .

ـ « ولم لا ؟ »

ـ « لأنه ، ربما محبوس في غرفته ، او أن بابها مقفل عليه » .

ـ « اذن ما نفع صراخك ؟ »

ـ « اسمح لي ، دكتور ، أن اجيب بكلماتك أنت بالذات : لكي اذكّره بوجودي هنا » .

ـ « واذا جاء اليك راكضاً ؟ »

ـ « سيرى حالي ، ويفهم » .

ـ « واذا لم يفهم حالك كما تريده ان يفهمها ؟ »

ـ « سأحاول إفهامه وإقناعه . ولكنني هنا أيضا ، دكتور ، قد ألجأ إلى ما قلته أنت » .

ـ « تعني ؟ »

ـ « احاول اقامة العلاقة المعقّدة بين الأنا والأنت » .

ـ « بصراحة ، لا أفهم » .

ـ « أذكر بوضوح استشهاداً لك ، ربما نسيته أنت ، بقول شاعر من شعراء القرن الماضي :

لن تستطيع البرهان على أنني ، أنا الذي أخاطبك ، لست أنت مخاطباً نفسك .

فما من أمر يستحق البرهان في المقدور برهانه ، ولا في المقدور تفنيده . . . »

قاطعته : « بدأت تحيّرني » .

غير أنه أهمل مقاطعتي ، واستمر :

« أي أنني يجب ان أتذكر ، عند إقامة العلاقة ، أموراً عـدة في آن واحد : اولاً ، أنا الذي اخاطبك قد أكـون أنت مخاطبـاً نفسك ـ كـما في حـوارنـا الآن ـ وفي هــذا معنى لا يخلو من عمق ، يمكن الحـديث فيــه ساعات . ثانيا ، العلاقة دائماً مركبة ، إنها علاقة بين الأنا والأنت ، وبين الأنـا والأنا ، وبـين الأنت والأنت ـ وما يستتبـع ذلك من تشـابك يكـاد يستحيل حلّه . ثالثا ، بعد كل ذلك ، فإن أهمّ ما في الحيـاة ، وأهمّ ما يغنيها ويدفع بها ، ويرفعها ويخفضها ، يتخطى العقـل ويؤكد عـلى فعله الجارف فيما هو فوق متناول البرهان والتفنيد . . . »

دخت . ما عدت أفهم شيئاً . فقلت :

« أهذا كله تذكره عني ؟ »

*

قال : « إلى حد ما . باختصار » .

ـ « واذا اردت انا الخروج من هنا ، دون اللجوء الى الصراخ ؟ »

ـ « لا شيء أسهل من ذلك ، بالنسبة لك »

ـ « اذن ، حفظك الله ، أخرجني من هنا ، تجعلني أسير كرمك الى الأبد » .

ـ « هذا أقلّ ما بامكاني أن أفعله من اجلك . تفضل معي » .

واتجه نحو بـاب جـانبي ، أبيض الـطلاء ، لم اكن انتبهت لـه ، وخرجنا معاً الى دهليز عريض ، مضاء ، وقادني الى درج صاعد ، وقال :

ـ « مـا عليك إلا أن تصعـد هذا الـدرج إلى الطابق الأعـلى ، ثم تنعطف الى اليسار . وستجد بعد مسافة قصيرة درجاً ينزل الى الاسفل ، عليك به ، لأنه اقصر السبل الى الخارج » .

لم اطمئن تماماً الى ارشاده ، فسألته :

- « ألا ترافقني اليه ، دكتور جاسم ؟ »

- « راسم . راسم عزّت » .

- « العفو ! ذاكرتي اصبحت كالغربال . . . ألا ترافقني إلى الطابق الأعلى » ؟

- « لن تحتاج اليّ ، دكتور . وأنا على كل لا استطيع الابتعاد عن مكاني ، لأن الباب الآخر قد يفتح في أية لحظة ، وعليّ ان اكون هناك عندما يفتح » .

سلّمت امري لله ، وقلت : « شكرا . عد الى كتابك » .

مد يده مصافحاً :

- « أنصحك بأن تحصل على نسخة من هذا الكتاب . تذكر عنوانه : « المعلوم والمجهول » » .

- « نعم ، نعم » .

- « اذا صادفت عليوي في طريقك ، اطلب إليه أن يزوّدك بنسخة . . . يجب ان تقرأ ما يكتبونه عنك ، مهما يكن غير دقيق ، او مليئا بالأخطاء » .

قلت : « طبعا ، طبعا » . وصعدت الدرج وأنا أفكر بنفسي : أأنا أقرأ ما يكتبونه عني ؟ هل جننت ؟

بلغت الدهليز الأعلى ، وكان قليل الإضاءة ، وانعطفت إلى اليسار بسرعة ، لولا أن يداً برزت من عباءة سوداء اوقفتني . كانت يداً جميلة ، مدبّبة الأصابع ، حمراء الأظافر ، كثيرة الخواتم ، والاساور الذهبية العديدة تلتمع على معصمها . وحسبت انني ضحية خداع بصري حين وجدت هذه اليد تتكرر ثلاث مرات . ولكن لا . فقد كانت هناك ثلاث

نساء جالسات ، تسربلت كل منهن بعباءة سوداء تغطي الرأس وبعض الوجه ، وتنحدر الى بقية الجسم حتى الأرض حيث لا يظهر إلا طرفا القدمين . وقد التصقت الواحدة بالأخرى على مقعد واحد مرتفع . كن ثلاثتهن أشبه بتماثيل صنعت من الآبنوس ، لولا ان وجوههن البيضاء كانت سافرة بعض الشيء ، وعيونهن الكثيفة الكحل مفتوحة على سعتها وكأنها من بلّور . رفعت لي كل منهن يدها اليمنى ، ثم انزلتها الى حضنها . فتوقفت ازاءهن : هل هن أخوات القدر اللواتي قرأت عنهن في الاساطير في صباي ؟ هل يردن شيئا مني ؟ هل علمن بقدومي ؟ غير أنهن ، حين وقفت أمامهن متسائلاً ، أغمضت ثلاثتهن عيونهن ، وفي الحال نسينني . ويبدو ان الوسطى منهن ، حين لم أبدِ حراكاً في وقفتي امامهن ، حدست بأنني أود مخاطبتهن ، ففتحت عينيها ، وانتبهت إلى ضفائرها الفاحمة الطويلة وقد انسابت على جانبي خديها ، وبانت من خلال فتحة العباءة عند الصدر وهي تستقر على نهديها السخيَّين . ورفعت يمناها مرة أخرى ، واقتربت بسبابتها من شفتيها ، ثم مدت ذراعها العارية من التلافيف السوداء ، واشارت بأصبعها باتجاه عمق الدهليز ، وهمست : « هناك . . . » .

ولثانية واحدة رأيت في محيّاها تناقضات الدنيا كلها : رأيت التفجّع ، ورأيت المجون . رأيت الشبق ، ورأيت إنكار الذات . رأيت الغواية ، ورأيت الصد . رأيت القدرة على كل شيء ، ورأيت العجز المطلق . . . امسكت عن النطق إزاء هذه التماثيل المشحونة بأسرارها ، وانصرفت عنهن قبل أن يتهاوى اللغز عن ذراه الرائعة ، وحالما أشحت بوجهي عنهن ، لمحت في نهاية الرواق بداية الدرج النازل . الحمد لله ! وأسرعت إليه .

ولكنني ما إن هبطت بضع درجات ـ لم تكن مضاءة ، ولا يأتيها النور إلا بشكل موارب من اضاءة الدهليز ـ حتى انعطف السلّم ، وكدت أطأ على ظهر رجل جالس على الدرج . وبقربه قعد رجل آخر ، وعلى

الدرجات التالية قعد رجال ونساء على امتداد السلّم نُزُولا ، وعلى كل درجة صف متراصّ منهم . توقفت لحظة لأتبين الوضع . كان السلّم هذه المرة ينحدر الى مسافة بعيدة ، إلى ان يغيب في الظلام كما في قعر بئر سحيقة الغور ، وقد اكتظ بالبشر ، واتكأ بعضهم على بعض . ورغم العتمة المتزايدة ، استطعت ان ارى انهم جميعا متعبون ، منهكون ، صامتون ، إلّا من بعض السعال والنحنحة هنا وهناك . ولقد كانوا في ذلك الوضع منذ زمن طويل ، ولا شك . وتبينت انني لن استطيع النزول إلا بأن أخطو فيما بينهم بصعوبة ، وقد أدوس على أيديهم وارجلهم اذ أفعل ذلك .

تحرّك الرجل الذي ارتطمت قدمي به . تحرّك قليلاً ، ثم رفع رأسه إليّ ، كأنه يتساءل عما أريد فقلت :

ـ « العفو . أريد النزول » .

أجاب ساخراً :

ـ « صحيح ؟ وأنا كذلك » .

ـ « تقصد ان الطريق مسدود ؟ »

ـ « كما ترى » .

ـ « وما العمل ؟ »

ـ « إجلس على درجتك ، وانتظر » .

ـ « الى متى ؟ »

ـ « إلى أن يأتيك الفرج . . . هل أنت محكوم ؟ »

ـ « محكوم ؟ العياذ بالله ! »

ـ « اذن أنصحك بأن تعود من حيث أتيت . هذا الدرج خاص بالمحكومين » .

في ظروف أخرى قد كنت اسأل واستفسر ، غير أنني في ذلك الوضع لم أشعر إلا بضرورة ايجاد منفذ إلى فضاء ما ، وليكن ما يكون . عاد إليّ

الاحساس الفظيع بالاختناق ، والهواء فاسد بالانفاس . ولكن انسانيتي كابرت بي ، وقلت :

ـ « سأجلس معكم » .

واذا الرجل الآخر هذه المرة يرفع رأسه باتجاهي ويقول :

ـ « وما الفائدة ؟ »

ـ « تضامناً معكم » .

عاد إلى وضعه ، وهزّ كتفيه ، وسمعته يتمتم :

ـ « كما تشاء » .

والتفت إليه جاره وقال بصوت منخفض :

ـ « يوزّعون علينا أفضالهم » .

وهزّ الآخر رأسه الغائر بين كتفيه اليائستين ، وتحسّر : « إيه ، إيه . . . »

ولم يخطر ببالي أن عليوي سيكون لي بالمرصاد حتى هناك . أحسست بيد تربت على كتفي ، ولما التفتُّ رأيت الهامة الصلعاء إياها تنحني فوقي ، اذ وقف عليوي خلفي على الدرجة التي تعلو درجتي ، وكالمرأة في العباءة السوداء ، هو أيضاً وضع سبابته على شفتيه يشير اليّ بالسكوت ، ثم يهمس :

ـ « اتبعني » .

ترددت ، وبقيت مكاني . فأعاد الهمس :

ـ « المسألة تهمك . تهمك أنت » .

قلت :

ـ « ليس لديكم ما يهمني » .

وقعدت على الدرجة بعناد .

نزل إلى جانبي وانحنى عليّ مرة اخرى ، وهمس :

ـ « ليس هنا مكانك » .

فقلت بصوت أقرب إلى الصياح :
ـ « ولم لا ؟ هؤلاء الناس كلهم ، أليسوا بشراً مثلي ؟ »

استدارت عدة رؤوس من الجالسين على الدرجات الأدنى في اتجاهي ، وقال واحد او اثنان منهم :

ـ « هُس . . . »

وردد عليوي الصدى ، وقد ألصق شفتيه بأذني :

ـ « هس . . . دكتور . سأشرح لك الموضوع فيما بعد . . . هيا . . . »

انتصب في مكانه ، وجرّني بقوة من ذراعي إلى الأعلى . وقفت مكرها ، وصعدت ، وتبعته ، ثم جعل يسرع ، وقد شبك ذرعه في ذراعي كأنني أعزّ صديق له في الدنيا . هبطنا درجاً ، وصعدنا درجاً ، ومرقنا في قاعة او قاعتين ، وعليوي صامت ، متجه نحو غايته بثقة مذهلة ، وينظر بين الحين والحين الى الساعة التي في معصمه كأنه بات يخشى التأخّر عن موعد مضروب .

أمسكت بذراعه ، وأوقفته ، وقلت :
ـ « أنظر ، عليوي » .
ـ « نعم ؟ »
ـ « ما حكاية تلك الرسالة التي سلمتني إياها في الغرفة الزرقاء ؟ »
ـ « ما بها ؟ »
ـ « من الذي ارسلها ؟ »
ـ « هل قرأتها ؟ »
ـ « طبعاً » .
ـ « اذن ، فأنا قد بلّغت » .
ـ « ولكن من ارسلها ؟ »

فقال بشيء من الضجر ، كأنه اضطر لشرح قضية شرحها ألف مرة من قبل :

ـ « يا دكتور ، انا لا يهمني من يرسل ماذا الى من . تأتي الرسائل الى مكتبي ، فأقوم بتوزيعها . اما محتواها ، ومرسلوها ، ومتسلموها ، فليسوا من شأني . . . ولكن دعني اسألك ، اذا سمحت : لم لا تنظر الى المسألة من الوجه السيكولوجي الصرف ؟ »

ـ « انا لا ارى اي وجه سيكولوجي لهذه المسألة ! » أبطأ من سرعته في السير قليلا ، ودون ان ينظر إليّ ، قال :

ـ « إني أخجل أن أشرح للدكتور نمر علوان امراً هو أبرع الناس في تفصيله . . . »

وقبل أن أعترض او أحثه على الشرح ، أكمل :

ـ « في أعماق الذات من كل إنسان توق إلى تلقّي هواتف ، او هواجس ، أو إرسالات ، من بقاع مجهولة ، تشير الى وجود قوى ، او نشاطات ، او كائنات ، خارج الوعي المباشر تبغي التماس بهذه الذات . . . ألا يلذّ لك مثلاً ان تتلقى رسالة من معجب مجهول قد ترفض إدخاله الى بيتك لو تجسّد على بابك ، في حين أنك ترحب بكلماته المخطوطة ، لأن الكلمات انما هي طاقة ممكنة ، غير مجسّدة ، تحمل معاني لا تتأطّر ضمن حدود من المادة ؟ لم لا تدع هذا التوق الغامض في أعماق ذاتك ـ يجري على سجيته دون التدخل ، والرقابة منك ، والإصرار على معرفة السبب والنتيجة ؟ لم لا تتيح لنفسك ان تتلقى ما لا تدركه الحواس ، لكي تكتشف ما هو أبعد منها ؟ أعذرني ، دكتور . هذه قضايا ليست من اختصاصي » .

هتفت ، وقد تأكد لي مكره اكثر من ذي قبل :

ـ « عليوي ! أين منك أبو الهور ! »

نظر إليّ وأعطاني ، لأول مرة ، ابتسامة غريبة ، ابتسامة شيطانية ، كأنه ساحر أفلح في اخراج عشرة ارانب حية من قبعته ، وقال :

ـ « أنا ؟ أنا مجرد نقطة من بحره ، يا سيدي . . . هيا . أسرع . تأخرنا » .

وعاد الى صمته ، واقتادني الى باب مصعد أنيق ، ضغط زرّه فانفتح في الحال ، كأنه كان واقفا في انتظارنا . في داخل المصعد مرآة كبيرة : رأيت خيالي للمرة الثانية هذه الليلة ، رغم ما لاحظت من محاولة عليوي ان يقف بيني وبين المرآة . غير أنني أزحته من امامي لكي استطيع التمعّن بوجهي فيها ، وارتعبت . . . لم يكن ذلك وجهي الذي أعرفه ! كأنني رجل آخر لم أره من قبل في حياتي . وصحت :

ـ « هل هذه ألعوبة أخرى من ألاعيبك يا عليوي ؟ » .

لم يجب . ولاضطرابي ، لم أعرف هل صعد بنا المصعد ام هبط ، حين انفتح بابه وسحبني عليوي من يدي إلى رواق طويل ، تتعاقب فيه الابواب بشكل نظيم ، كما في فندق ـ مع فارق واحد ، هو ان الأبواب لم تكن مرقمة . توقف عند احدها ، وقد ثبّتت عليه لافتة صغيرة كتب فيها « الخروج » . قلت : « الحمد لله ! » ودفع الباب ، ودخلنا غرفة عُزل القسم الخلفي منها عن الأمامي بحاجز ، نصفه الأسفل من خشب ، والأعلى من زجاج ، وعلى النصف الخشبي عارضة رتّبت عليها اوراق استمارات . ووراء الزجاج جلست فتاتان ، وامام كل منهما آلة كاتبة .

تناول عليوي استمارة ودفعها إليّ وقال :

ـ « أعندك قلم ؟ أملأها بسرعة ، من فضلك » . أخذتها ، ونشرتها على العارضة ، واخرجت قلمي وقرأت :

الاسم الرباعي للأب ومهنته . . . . .
الاسم الرباعي للأم ومهنتها . . . . .

اسماء اربعة اعمام ومهنتهم . . . . .
اسماء أربعة اخوال ومهنتهم . . . .
التوقيع . . .

تلكأت ، والقلم بين أصابعي . قد اتذكر اسم أبي ، واسم جدّي ، أما اسم ابي جدّي ، وجدّ جدّي . . .

لحظ عليوي تلكؤي ، فاختطف الورقة من يدي ، واخرج قلماً من جيب الصدر في السترة ذات الأزرار المتوهجة ، وقال :

ـ « سأملأها عنك » .

وبطرفة عين ، ملأ السطر الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، فالرابع ، ودفع الاستمارة إليّ وأمر . « وقّع ! »

ولما تلكأت مرة اخرى عند التوقيع، سحب الورقة ثانية ، وخطّ ما يشبه التوقيع في نهايتها ، ودفعها من تحت الحاجب الزجاجي نحو احدى الفتاتين ، قائلا :

ـ « اختميها ، رجاء ، واعذرينا عن هذه العجلة » . ودونما كلمة ، اختارت الفتاة ختماً من الأختام العديدة المرصوفة امامها ، وختمت الورقة ، ثم ألقمتها جهاز التصوير الذي على يمينها ، والذي لفظ نسخة منها في ثانيتين ، ثم نسخة اخرى ، سلمتهما كلتيهما لعليوي ، واحتفظت هي بالأصل . وأزجت إليّ ابتسامة شبه تآمرية ، كأنها تقول : أنا أعرف انك لم تملأ الاستمارة بنفسك . . . ورفعت يدها قليلاً بتلويحة وداع لطيفة .

عندما خرجنا ، وانغلق الباب وراءنا ، قدّم لي عليوي احدى نسختي الاستمارة ، قائلا :

ـ « هاك ، دكتور . قد تحتاج إليها » .
حدّقت إلى عينيه ساخطاً ، وقلت :

ـ « وما شأني بها ؟ هل انا الذي ملأتها ؟ »
ـ « وما الفرق ؟ هاك اقرأها » .
ـ « ارفض ان اقرأ تلفيقاتك » .
ـ « لا بأس . لا تقرأها . على الأقل احتفظ بالنسخة . قد تحتاج اليها حين لا اكون معك » .

طواها ، ودسّها في جيبي الجانبيّ رغماً عني . واحتفظ هو بالنسخة الأخرى بيده . ثم نظر الى ساعته مرة ثانية ، وأضاف :

ـ « بالله أسرع . لقد تأخرنا جدا . . . ذلك الممرّض المعتوه راسم عزّت ، وصيّته بوضوح بأن يأتي بك الى غرفة المآدب ، ولكنه تقصّد أن يضلّلك . ذلك شأنه دائماً » .

ـ « إذن نحن الآن نسرع إلى غرفة المآدب ؟ »

ـ « مجموعة من السياسيين والمفكرين أقاموا حفلة عشاء على شرفك . ألم يعلمك أحد بذلك ؟ »

ـ « عليوي ، انت أبو المفاجآت ! »

ـ « ولكن علينا ان نذهب للأرشيف اولا . إنه على طريقنا . ولن نضيّع هناك اكثر من لحظات . عندك مانع ؟ »

ـ « الأرشيف ؟ آ ، طبعاً . التوثيق مهم » .

ـ « نعم . من هنا » .

وأخذني إلى مصعد ضيق ، له معه مفتاح خاص ، أنزلنا إلى قبو مديد مضاء ، فيه الخزائن الحديدية ، الرصاصية اللون ، تبلغ السقف ارتفاعا ، وتتوالى من على الجانبين في خطين يستمران ليلتقيا في استدارة عند الطرف الأقصى من القبو . والخزائن ذات ابواب حيناً ، وذات مجرّات حيناً آخر . وكلها فاخرة الصنع من فولاذ لا يقبل الصدأ . ارتقى بي

عليـوي معه عـلى ما يشبـه الرصيف المعدني الممتدّ عـلى الجانبـين لصق الخزائن ، وبحركة من قدمه ، أخذ هـذا الرصيف يتحـرك بنا إزاءهـا ، واستمـررنا في تـوغلنـا حتى بلغنـا الاستـدارة القصـوى التي يلتقي فيهـا الجانبان ، وهناك اوقف عليوي الحركة . وقال :

ـ « أترى كيف نحفظ اوراقنا ؟ ملايين الاوراق ! ألف سنة لن تنال من ورقـة حفظنـاها هنـا ! عندنـا موظفـون عديـدون ، ولكنني قليلاً مـا احتاجهم . صرفتهم كلهم هذا المساء . . . والآن . . . نون عين ، نون عين . . هنا ! »

وجرّ دُرْجاً كبيراً مليئاً بـالأضابـير . ولكنه كـان مليئاً أيضـاً بأشيـاء أخرى ، لم يتوقعها عليوي . اذ انطلقت من بين الأوراق صراصير سمينة من أحجام مختلفة ، ورأيت على الأقل عقربين سوداوين ضخمين يخرجان من جانب الدرج ، وزحفت عدة عظايـا برصـاء الى الخارج كـأنها تريـد استنشاق الهواء ـ مما جعلني فزعـاً اقفز عن رصيف الحـركة . وقـد لمحت لحظتئذٍ بضـع حيايـا صفراء صغيـرة ترفـع رؤوسها من بـين الأضابـير ، وتتمايل بها . . . فوجىء عليوي ، وارتبك . وألقى بـالورقـة التي كانت طيلة الوقت في يده الى باطن الدُّرج ، وأغلقه بدفعة قوية دوّى صوتها في قبو الارشيف كانفجار قنبلة !

وقفز هو أيضاً عن رصيف الحركـة ، وأخذ بـذراعي ، وهرول بي عودة الى المصعد الضيّق وهو مغضب ، محبط ، محرج ، ولا يقول شيئاً . ولكنه حال خـروجنا من المصعـد ، فرض عـلى شفتيه ابتسـامة خـائبة ، وقال :

ـ « أخشى انك فزعت ، يا دكتور ؟ »
قلت ، وأنا أبلع ريقي :
ـ « أبداً ، عليوي ، أبداً » .
ـ « والآن ، إلى غرفة المآدب » .

ـ « المآدب ؟ آه ، نسيت والله ! »

وبعد قليل هتف :

ـ « هه ! وصلنا ! »

في نهاية الرواق ، عند باب فخم كثير النقوش ، فتح لي أحد المصراعين العاليين ، ودفعني برفق إلى الداخل ، وأغلق المصراع ورائي .

دلفت وحدي الى الصالة الكبيرة ، وقد توسطتها مائدة مستطيلة ، تعلوها ثريا هائلة تتوهج بأنوارها وبلّورها ، وجلس حول المائدة قرابة ثلاثين رجلاً وامرأة نهضوا جميعا حالما رأوني أدخل . وهتف رجل مهيب الطلعة ، أشيب الشعر ، في اواخر خمسيناته ، من على رأس المائدة :

ـ « أهلاً ، اهلاً ، دكتور ! تفضل هنا ، إلى يميني . . . قلقنا عليك يا رجل ! تأخرت ! »

قلت :

ـ « السلام عليكم » .

فردّوا التحية جميعاً ، وكرّر الرجل الذي على رأس المائدة :

ـ « هنا ، هنا ، إلى يميني » .

بدا لي من حماسه ، واحترام الآخرين ، انني حقاً ضيف الشرف في هذه المأدبة . والمائدة منصوبة بشكل في غاية الذوق والأناقة ، مع باقات من الورد بين الكؤوس البلورية المتألقة ، ووراء كل شخصين او ثلاثة جالسين إلى المائدة يقف نادل في سترة بيضاء وبنطلون اسود ، وقفازات بيضاء . كانوا فعلاً في انتظاري ، اذ ما كدت أجلس على كرسي الشرف ، حتى جعل النُدُل يتحركون بخفة ، وراحوا يصبّون الخمر في الكؤوس .

لم أعرف واحداً منهم ، هؤلاء الذين قلقوا عليّ وكانوا في انتظاري . ولكنني كنت قد بلغت حدًّا من التصميم ، بيني وبين نفسي ، على المضيّ في أمري معهم ، ومع كل من ألقاه هنا ، كأنني أنا الذي يتوقعونه ، أو

يحسبون انهم يتوقعونه . فلأكن الدكتـور نمر علوان ، او عـادل الطيبي ، ولأر ما الذي يريدون ـ ان كانوا فعلاً يريدون شيئاً ـ من نمر علوان او عادل الطيبي . كان واضحاً أنهم ، أينما التقيتهم ، يفضلون نمر علوان . فلأكن هذا الرجل ، ولو لهذه الليلة اللعينة وحدها . . . تـرى هل سيكتشفـون أمري ، ويعيدون إليّ هويتي ؟

ولذا ، عندما التفت إليّ ربّ المأدبة ، والكأس في يده ، وقال بدماثة بالغة :

ـ « أرجو الا تكون قد وجدت صعوبة في المجيء الينا ؟ »

قلت :

ـ « والله ، لم يكن المجيء سهلاً » .

ارتسم الاهتمام على ملامحه ، وقال :

ـ « ها ! لعلك جئت من الطريق الثاني ؟ . . هذه مشكلة مقرنا . هناك طريقان إليه : اولهما سهل ومباشر . والثاني ، اوف . . . الثاني كله طلعـات ونزلات والتـواءات . أنا آسف ، آسف ، دكتـور . . . المهمّ ، أنك هنا ، أخيراً ، بيننا » .

قلت :

ـ « الحمد لله ! »

انتصب في جلسته ، وقال بصوت مرتفع :

ـ « أيها السيدات والسادة ، كأس الدكتور نمر علوان ! »

التفتوا إليّ جميعاً ، ورفعوا كؤوسهم باتجاهي ، قائلين :

ـ « نخب الدكتور نمر علوان ! »

شـربت كأسي معهم . جـرعتها كلهـا دفعة واحـدة . وأشرت إلى

النادل الذي خلفي بأن يملأها من جديد . ثم جاؤوا بالحساء ، وتلاه السمك ، وتلاه اللحم . وتوالت الكؤوس والاطباق في خدمة تليق بمأدبة من ذلك الوزن ـ ولو انني ، والحق يقال ، كنت مهيأً لأن أشرب اي شراب ، دع عنك ذلك النبيذ الأحمر الفاخر ، وأن آكل اي مأكل ، دع عنك ذلك الطعام اللذيذ ، بعد تلك الساعات الطويلة البائسة .

كان جو المرح الذي تشيعه الكؤوس والأطباق المتوالية صاخباً ، وأنا لا أعلم بالضبط ما الذي جمع هؤلاء الرجال والنساء معا ، بأعمارهم المتباينة ، على شرفي .

أخيراً ، عندما قُدِّمت لنا القهوة ، ودارت بيننا علب السيكار ، وملئت كؤوس الكونياك ، دنا رب المائدة بوجهه مني ، وسألني :

ـ « أمستعدٌّ للكلام ؟ »

صدمني سؤاله . قلت :

ـ « حول ماذا ؟ »

ـ « كلمة من ضيف الشرف ، دكتور . . . لا بد منها ، وأنت سيد الكلمة » .

ولحظت ان الآخرين يلتفتون بأبصارهم ـ بل يشرئبون بأعناقهم ـ نحوي . نهض ربّ المائدة على قدميه ، وقال :

ـ « سيداتي ، سادتي ! »

انقطع اللغط ، وساد الصمت . فأردف :

ـ « كلمة من ضيفنا العزيز ، الدكتور نمر علوان . . . »

أخرج ورقة من عبه ، ولبس منظرته ، وجعل يقرأ ، وعيناه تتناوبان النظر الى الورقة والى وجوه السامعين : « ولكن قبل ان يقول كلمته ، اسمحوا لي بأن انطق بلسانكم إذ أعبّر عن اعتزازنا وابتهاجنا جميعاً بوجوده هذه الليلة بيننا ، وهو الذي اشتهر عنه تمسّكه باعتكافه في منزله وزهده في

الخروج إلى الناس . . . إننا على تباين آرائنا ومواقفنا ، قد نتفق معه ، وقد نختلف . وذلك امر مشروع ، بل ضروري . غير اننا ، فيما أظن ، مجمعون على أنه ، عبر ما يقارب الثلاثين سنة من العطاء الفكري المتواصل ، رسّخ لنا تقاليد وأساليب ورؤى تصبّ كلها في ذلك المسار المثمر ، الذي يجدّد لنا ، في عالم مضطرب متخبّط، هويّة واضحة لا يأخذ منها الاضطراب والتخبّط . وأنا ما شككت يوماً ، منذ ان اقبلت على كتاباته وانا ابن عشرين سنة ، أن كلّ من يجابه ذاته متأملا ، فيسأل نفسه ذلك السؤال الفلسفي الذي هو البداية والنهاية لكل معرفة حقة : « من أنا ؟ إلى أين أنا أسير ؟»ما عليه إلا أن يقرأ نمر علوان يجد الجواب الشافي ، او على الأقل ، ليجد المعالم التي تهديه إلى ذلك الجواب . . . هذا الرجل الذي رفع رأسه في وجه الرياح العاتيات ، ولم يتزعزع ، ومشى إلى الأمام ، وعيناه مفتوحتان على المستقبل . والأصعب من ذلك ، ان عينيه كانتا وما زالتا أبداً مفتوحتين على الحاضر : في عصر نجد فيه ان الحاضر هو الأشق على الفهم ، والأشد احراقا للعصب . . . »

*

وهنا ، وضع الورقة عنه جانباً ، ونظر إليّ كأنه يريد أن يقول شيئاً لم يسجّله في ورقته . هل اكتشف حقيقة أمري اثناء حديثنا ، فأراد ان يخرج على ما كان قد هيأه من تحليل ، او تقريظ ، مسبق ؟ ابتسم لي ربّ المأدبة ، وغيّر الكثير من لهجته المنبرية إذ قال :

ـ « أيها السادة ، لو أتيح لكم ان تتحدثوا إلى ضيفنا الكريم كما اتيح لي أنا هذا المساء ، لأندهشتم لكلامه حقاً . . . أتدرون ماذا قال لي الدكتور نمر علوان قبل دقائق ؟ قال إنه حين ينظر الى نفسه اليوم ، يجد أنه أشبه برجل دخل المتاهة عن خطأ ، ولم يلتق ابنة ملك على مدخلها ( كما فعل بطل الاسطورة اليونانية ) تعطيه خيطاً يستمر بمدّه ، ليعرف بعد ان يتوغل فيها كيف يعود ويخرج منها إلى الهواء الطلق !

واذا لقي المينوتور في نهاية المتاهة ، فلن يعرف ما الذي بالضبط سيفعل به ، لأنه نسي ان يأتي بسلاحه معه . . . فماذا نقول نحن اذن ، نحن الذين يُزَجّ بنا في المتاهة زجّاً كل يوم ، والمينوتور ينتظرنا ، ليلتهمنا واحداً واحداً ، غداء وعشاء له ، ولم نُزَود بمثل ذلك السلاح القاطع الذي وهبته الطبيعة لنمر علوان : سلاح العقل النيّر ، الذي لا يصمد وحش أمامه ؟ . . سادتي ، هكذا يكون تواضع العلماء . . . » .

أي تواضع ، يا رب المائدة ، وأي فخ نصبت لي ! لم أذكر انني قلت له شيئاً عن المتاهة ولا المينوتور . . . من أين لي ان أبرّر ولو جزءا من هذا الشطط البلاغي ؟ تمنيت لو ان رأسي ينفلق ، لو انه ينشق عن إنسان آخر لا علم لي به ، يرقى إلى مستوى ذلك الشطط ، ويخرج بي من ورطة ما بعد العشاء تلك . وأنا الذي نسيت اسمي ونسيت ماضيّ كله ، شعرت انني نزلت إلى القاع من ذاكرتي المثقوبة ، أَلَمِلمُ منها اي بقايا عصيت على الثقوب ، فلم تتسرّب .

وانتبهت الى ان الحاضرين يصفّقون ، وان بعضهم يدقون كؤوسهم بما هو امامهم من ملاعق او سكاكين . وركّز رب المائدة نظراته عليّ للمرّة الاخيرة ، وهو ما زال واقفاً ، وقال : « أيها السادة ، الدكتور نمر علوان » .

وصفّق لي مشجعاً ، وجلس وهو ما زال يدق كفاً بكف . أما أنا فأخذت نفساً عميقاً ، وانتصبت واقفاً ، وسمعتني أقول ( كأن القائل شخص آخر ! ) ، متردداً متلعثماً اول الأمر ، ثم مستعيداً ثقتي شيئاً فشيئاً :

ـ « لست ادري والله كيف أبدأ ، أيها السيدات والسادة . كان آباؤنا فيما مضى يستهلّون كلامهم ببيت من الشعر ، فيوحي إليهم بكلام ينهمر من الشفاه دونما مشقة . . . ولكن يبدو ان الشعر ـ هذا اذا كنا لما نزل نحفظ شيئا منه ـ ما عاد يوحي الينا بقول جديد أو فكرة مهمة هذه

الايام . قال الشعراء كل ما عندهم للقول ، وسمع السامعون كل ما يمكن ان يسمعوه ، فما عاد ثمة ما يمكن ان يثير أحدا اذا ما قيل . . . ومع هذا فإن ثمة أبياتاً للمتنبي ، أيها السادة ، تتردّد في خاطري ، وتتمنّع على النسيان حتى في ذاكرتي ، تعرفونها جميعاً ولا شك : « كلما أنبت الزمان قناة / ركّب المرء في القناة سنانا » . تأملوا ذلك جيّدا معي : هذه القناة التي ينبتها الزمان لغرض يخدم الانسان ومسعاه النبيل في الأرض ، طلبا للخير ، يرى المتنبي بنفاذ بصيرته ، أن الانسان انما يستغلها لعكس ما ارادت له الطبيعة : انه يكرّسها وسيلة للشرّ ، للقتل ، فيركّب على رأسها السنان . . . كان المتنبي ، بلغة اليوم ، واقعياً ، لا يُخدع بشيء . وقد رأى من البشر ما أقنعه بمقولته الشهيرة : « والظلم من شيم النفوس فإن تجد / ذا عفّةٍ ، فلعلّةٍ لا يظلمُ » . فالحالة الطبيعية لديه هي ان تتصّف نفس الانسان بشيمة الظلم . أما اذا تعففت عنه ، فلأن فيها ضعفاً ، سببا كامناً ، يخيفها من تحقيق ما جبلت عليه . عفة الانسان ، اذن ، ليست فضيلة . . . ليس عجيباً اذن ان يركّب في كل قناة تنبت في الارض سناناً لقتل الآخرين . . . ولكن ، لنستمر مع المتنبي برؤيته التي سينتهي بها الى ما يعنينا اليوم : « ومراد النفوس اصغر من أن / تتعادى فيه وأن تتفانى / غير أن الفتى يلاقي المنايا / كالحات ولا يلاقي الهوانا . . . » في هذه الكلمات القليلة نجد الدرس الذي سيتعلمه فيما بعد هاملت شكسبير ، مع أداء الثمن : مراد الانسان ، مهما كبر ، أصغر من ان يسمح له بخلق العداوات التي قد تؤدي بشرّها الى إفناء الواحد منّا الآخر . لاحظوا تلاعب الشاعر الكبير بلفظة « تتفانى » . . . ولكن ، اذا أدّى مراد نفوس الآخرين الى هوانٍ ، للمرء ، لأنه ترفّع وتشامخ بفضيلته ( والأصح : بعلّته وضعفه ) ، وهو الذي غرست في نفسه أصلاً شيمة الظلم ، كما غرست فيها النزعة الى تركيب السنان في كل قناة ـ فإن على المرء حينئذ أن يرفض هذه الفضيلة الزائفة ، عليه ان يجابه المنايا الكالحات ، ولا يرضى بأي هوان . . . »

توقفت لحظة ، وأجلت بصري في الجالسين حولي ، وانظارهم جميعاً متجهة إليّ . حتى كؤوسهم ما عادوا يمسكونها بين اصابعهم . انهم يتوقعون المزيد . فاستأنفت ، ودخان السكائر والسيكار يتصاعد في الجو على مهل :

ـ « نبيذكم الفاخر هذه الليلة ذكّرني بليالٍ أخرى من الفرح ، كان معظمها أيام طفولتي ـ وطفولتكم ـ البعيدة ، البعيدة جداً عنا هذه الليلة . ليالينا الآن ، أيها السادة ، تخنقها الدماء . ووراء بابكم الكبير هذا ، وراء مصراعيه السامقين ، تتراكم الجثث . . . آباؤنا ، ابناؤنا ، اطفالنا ، نساؤنا ، يُقتلون في كل لحظة ، بوحشية منظّمة . في كل لحظة ، بيوتنا تُنسف ، ومدننا تُحرق . . . »

بدت الدهشة في وجوه الجالسين وعيونهم . وواضح أن ذلك لم يكن ما يتوقعون ان يسمعوه في تلك اللحظات ، رغم أبيات المتنبي . غير أنهم بقوا على صمتهم ، يحدّقون إليّ . أكملت :

ـ « قبل أربعة أيام او خمسة ، انتحر صديق لي احتجاجاً على ذلك كله ، بالذات . ما كنت اريد له أن ينتحر ، فقد كان في القمة من رجولته ، وكنت أتمنى لو انه يستمر بالصياح معنا في وجه الوحشية والقتل والدمار . ولكنه أصرّ على ان الموت اختياراً ، والحياة غدت كما هي ، أفضل وأكرم بكثير . قلت له اكثر من مرة : « لا تجعل يأسك أكبر منك » . قال : « لا إنه اكبر منا جميعا » .

وعندما رأيته قد انتحر بالفعل ، قلت له ، وانا اخاطب جثة هشمت الرصاصة جمجمتها ، قلت له ، أيها السادة : « حبك للحياة كان كبيراً ، فلما وجدت أن الحياة لا تتحمل منك كل هذا الحب ، رفضتها . . . عالم يتحكّم به القتلة والسفلة واهل الدجل ، ما كان لك إلا أن ترفضه ، وكنت على حقّ . وكان رفضك له تاماً ، كاملاً . فانتحرت ، وخجّلتنا جميعاً » هزّتني الفاجعة ، ايها السادة ، فتخيلتني أتابع جدلي مع

صديقي المنتحر ، وأقول له : « نحن أيضاً مثلك نرفض مثل هذا العالم . ولكن رفضنا عجز حتى الآن عن بلوغ تلك الذروة الشاهقة التي تطالب بكل شيء ، تطالب بحياة المرء نفسها » . والواقع أن التجربة لم تكن غريبة كل الغربة عنّي . ففي يوم من الأيام ، كان الاحتجاج ، والرفض ، والغضب ، قد بلغ بي ذلك الحدّ الرفيع كالشعرة ، ذلك الحدّ الفاصل بين الحياة والموت ، وكدت أن أتخطّاه . ولكن موجةً مجهولة ، بدلاً من أن تجرفني إلى الأعماق النظيفة ، الصاخبة بصمتها الحاسم ، قذفت بي الى الوراء ، حيث الساحل الصاخب بالنذالات والجرائم والدجل . هكذا شعرت يومئذ . . . غير انني اليوم ، وقد صمت صديقي أخيراً ، وبقيت الرصاصة التي هشّم بها جمجمته تدوّي حولنا ، أشعر أنني كنت محظوظاً ، بل سعيداً ، في العودة الى الساحل الصاخب بالنذالات والجرائم . لماذا ؟ لكي أجابهها بارادتي ، لكي اجابهها ورأسي مرفوع ، وعيناي مفتوحتان ، متشبثاً برؤيتي التي لن تزعزعني عنها ـ كما قال زميلي الكريم هنا ـ الرياح العاتيات . . . ومع ذلك ، فلأعترف :

« أنا ما جئتكم هذه الليلة إلاّ مرغماً ، متعثراً . ولو كان بوسعي ان أرفض المجيء ، لرفضت ، والله ! وذلك لأنني اتساءل بالحاح ، لماذا تريدون ان اكون ضيف الشرف لديكم ؟ في هذا العالم المهووس بجرائمه ، المندفع بجنون كل يوم من مجزرة بشرية إلى مجزرة ، ما الذي استطيع أن احققه لكم لأكون اهلاً منكم لهذا الاهتمام ، وهذا العناء ؟ وماذا حققتم أنتم في هذه الليالي الدامية التي يضجّ هواؤها بالصراخ والعويل ، سوى ان تسدّوا الآذان بأصابعكم بين الحين والحين ، وتهيئوا لأنفسكم وليمة قد تكون الأخيرة ، وانتم لا تعلمون ؟ اسمحوا لي ان اكرر ، ايها السيدات والسادة : وراء بابكم الكبير تتراكم الجثث . واذا لم تتداركوا الأمر قريباً ، فإنها ستنتشر امامكم ، هنا ، على الأرض من قاعتكم الكبيرة هذه بالذات . . . » .

« نعم ، نعم ! » قال رب المائدة بصوت عال . نظرت إليه ،

فوجدته يرنّح رأسه متألماً ، و . . . الدموع ، اجل ، والدموع ، تسيل على خدّيه . والتفتُّ إلى الآخرين ، وإذا هم جميعاً في بكاء ، وبعضهم يمسح الدمع عن وجهه برؤوس أصابعه .

فصرخت :

ـ « وأنا . . . أنا الذي . . . أنا . . . ما عدت أقوى على الاصطبار ! »

ـ « كلنا ، كلنا ما عدنا نقوى على الاصطبار . . . »

قال ذلك أحدهم ، وخيِّل إلي من صوته أنه يشرق بدمعه ، حين أزحت الكرسي الذي ورائي ، وسرت بعزم وتصميم نحو الباب ، والكل يبكي ويشهق ، وصوت النحيب يملأ الصالة . غير أن صيحة ارتفعت ، وكأنها لا تنتمي الى ما كان الجميع فيه : « ما هذا يا عالم ! أهكذا تنتهي الحفلات ؟ » وسمعت آخر يقول ، وأنا أمرّ به في طريقي الى الباب : « أنا لا أصدّق ان هذا هو نمر علوان ! » .

أما أنا ففتحت المصراع العالي ، وخرجت ، ولكن قبل ان أطبقه ورائي ، لحقت بي امرأة أطبقت هي الباب عني ، وسارت برفقتي وهي تقول :

ـ « ما كنت أتوقّع ذلك كله ! »

نظرت إليها ، وهي تتألق بجمالها ، وأقراطها ، وقلادتها الألماسية المشعّة على ترائبها العارية . واذا هي رفيقتي ، ساجنتي ، العابثة بي . أجفلت وتوقفت عن السير ، وقلت :

ـ « أنت ! مرة أخرى ! اين كنت ؟ »

أجابت ببراءة مذهلة ، وهي تضغط على حقيبتها بيد ، وباليد الأخرى منديل تجفف به اواخر عبراتها :

ـ « ألم ترني ؟ كنت على المائدة ، على بعد قليل منك . كيف وجدت الجماعة ؟ »

وأشارت بالمنديل الى الذين تركناهم في الصالة . وحين مضيت في سبيلي ولم أجب ، اضافت :

ـ « حسّاسون جدا . ورقيقون جداً . أليسوا كذلك ؟ »

ـ « اذا كانت دموعهم هي الدليل ، كدموعك » .

ـ « ممثلون ممتازون » .

لم أصدق ما سمعت . فقلت :

ـ « ممثلون ؟ »

ـ « نعم . نخبة من أفضل من في البلد » .

ـ « ولكن عليوي قال إنهم سياسيون ومفكرون » .

ـ « أوه ، لك ان تسميهم كذلك . على كلٍّ ، تمّ تصوير المشهد كله بكاميرات الفيديو . عدة كاميرات كانت تعمل ، من زوايا مختلفة » .

توقفت ثانية عن السير ، وواجهتها ، وأمسكت بكتفيها بكلتا يديّ :

ـ « هل تصورون كل شيء يجري هنا ؟ »

ـ « تقريباً » .

ـ « هل صورتم ايضاً المشهد بيني وبينك في الغرفة الزرقاء ؟ »

أزاحت يديّ عن كتفيها بنترة قوية ، وقالت متجاهلة :

ـ « أي مشهد ؟ »

ـ « أنسيت بهذه السرعة ؟ . . أنا وأنت في تلك الغرفة الزرقاء ،

في الضوء الأحمر الخافت ، وأنت في ذلك الفستان الجنائزي المثير . . . »

ـ « سامحك الله ، دكتور . أنا لم أدخل الغرفة الزرقاء منذ زمان » .

ـ « تكذبين ! »

قلتها بحزم وسخط . ولكنها أصرت على الانكار :

ـ « أبداً ! ربما كانت هناك امرأة أخرى ادعت أنها أنا ؟ او انها ادعت ـ »

قاطعتها : « بالضبط ! ادعت أنها . . . امرأة اخرى . . . أنت ايضاً ممثلة ممتازة . كالآخرين . كلكم ممثلون ممتازون . والآن ، اين ستأخذينني ؟ إلى المشهد التالي من السيناريو ؟ »

قبل ان تسير بي ، امسكت بذراعي بشيء من الحرارة ، وأخفضت صوتها كأنها تخشى ان يسمعها أحد حتى في ذلك الرواق المهجور ، وفي عينيها نظرة من تودّد ما كنت اتوقّعه منها :

ـ « اسمع . لولاي ، لكنت الآن في مكان آخر لا تستطيع ان تتخيله . صدقني » .

ـ « آ : لكنت أنفّذ سيناريو آخر ، اليس كذلك ؟ »

ـ « سيناريو ؟ طيب . تفضل » .

فتحت حقيبتها ، ووضعت فيها منديلها ، واخرجت بطاقة خضراء راجعت ما كتب عليها ، ثم اعادتها الى مكانها . وما كدنا نتحرك حتى قالت :

ـ « استمارة الخروج ، هل ملأتها ؟ »

وضعت يدي في جيبي ، واخرجت الورقة التي كان قد دسّها فيه عليوي ، وأعطيتها إياها .

تمعنت فيها ، وضحكت :

ـ « كل هذه الاسماء ! »

ـ « ارجو أنها كما تريدين ؟ »

ـ « ولكن اسمك انت ـ اسمك لم تكتبه فيها » .

قلت دونما اكتراث :

ـ « اكتبيه أنت . املئي النواقص كما تشائين » .

ـ « لا بأس » .

وألقمت الاستمارة حقيبتها اليدوية ، ثم توقفت ريثما رفعت امام عينيها غطاء الحقيبة ، الذي اثبتت خلفه مرآة صغيرة ، وعدّلت شعرها ، وفتحت علبة البودرة وبودرت أنفها وما تحت عينيها لتزيل آثار الدموع ، واخرجت قلم احمر الشفاه ، ومررته بسرعة على شفتيها . وتساءلتُ : فيم هذا الاهتمام كله بمظهرها ؟ أمن أجلي أنا ، أم من أجل اناس آخرين ستفاجئني بهم بعد لحظات ؟

سارت بي مسرعة عبر عدة أبواب ، وادخلتني غرفة جلوس اضاءتها بلمسة من يدها على زر الكهرباء . كانت غرفة مريحة الأثاث ، ومريحة الأبعاد ، معاً . لا هي بالكبيرة ولا بالصغيرة . ولأول مرة انتبهت الى ان الجدران مزدانة بلوحات زيتية ، بأساليب متنوعة ، لكنها حديثة . ولأول مرة كذلك عاملتني مرافقتي كربة دار تستقبل ضيفاً تحترمه . ترى هل صدّقت أخيراً أنني نمر علوان ؟ طلبت إليّ الجلوس في كرسي مريح ، وقدّمت لي سيكارة من علبة كانت على الطاولة الوسطى الأنيقة بسطحها الزجاجي . وأخذت هي سيكارة اخرى ، أشعلتها أنا لها بالقداحة المرمرية التي على الطاولة ، كما أشعلت سيكارتي . ولحظت ان على الطاولة كتابين ، وقعت عيني صدفة على احدهما : « البديل » ، وخطر لي انه عنوان جيد لكتاب .

ما إن جلست في كرسيها ازائي ، وأخذت نفساً او اثنين من

سيكارتها ، حتى قالت :

ـ « والآن أخبرني بصراحة ، ما اسمك ؟ أعني ، ما اسمك الحقيقي ؟ »

فوجئت بسؤالها . وكان لا بد لي من المراوغة ، لأنني كنت قد يئست من محاولة تذكر اسمي . قلت ضاحكاً :

ـ « عادل الطيبي » .
ـ « بدون مزاح ، رجاءً » .
ـ « نمر علوان » .
ـ « هل نسيت اسمك ، أم انك تخشى ان تذكره ؟ ألا تحمل هوية من نوع ما ؟ ابحث في جيوبك » .
ضربت بكفيّ على جبيني :
ـ « أنا الغبي ! كيف لم تخطر هذه الفكرة ببالي عند اول الليل ؟ »

وضعت يدي في جيب الصدر الداخلي ، واخرجت كل ما فيه : دفترا صغيراً مستطيلاً فيه ارقام تلفونات وصفحات خالية كثيرة ، اقتطع منها ما احتاجه بين الحين والآخر لكتابة ملاحظة او رسالة مقتضبة ، ومحفظة جلدية صقيلة اضع فيها عادة نقودي ، وهويتي ، وبطاقاتي الشخصية . واحفظ فيها أيضاً بضع صور فوتوغرافية لي ، من حجم صور جواز السفر ، للضرورات . وقلت : « انتهت المشكلة ، أخيراً ! »

ولكن الذي وجدته في المحفظة كان اكثر بكثير مما توقعت . حالما فتحتها انهالت بين يديّ رزمة من البطاقات والهويات ، من اشكال واحجام والوان مختلفة . وبعضها ألصقت فيه صور شخصية صغيرة ، كما هي العادة في الهويات . تركت لمياء ( عاد إليّ اسمها أخيراً ! ) كرسيها ، ووقفت الى جانبي ، ثم انحنت فوقي بترائبها العارية حتى رأيت استدارة نهديها النافرين . إنها تريد ان تقرأ بنفسها ما كتب على احدى بطاقاتي ـ فقد اكذب او أموّه عليها إن هي لم تر اسمي بعينيها . بل إنها اختطفت

الأولى من يدي ، وقرأت : « الدكتور فخري حسن منصور ، اخصائي بالعظام من جامعة ادنبره . . . عرفناك الآن ! »

وبعد لحظة استدركت :

ـ « ولكن الصورة ! هذه ليست صورتك » .

قدمت لها البطاقة الثانية ، وكانت مطوية زرقاء ، فتحتها وقرأت : « نقابة المهندسين : هوية : المهندس المتمرس حافظ موفق » .

وصحت :

ـ « انظري هنا : وزارة الشؤون الاجتماعية : أحمد الهاشم ، الوظيفة : مساعد رئيس دائرة . وهذه البطاقة تقول : الملاحظ الفني عبد النور عبد الأحد . . . وهذه الأخرى تقول : ثانوية الرشيد : المدرّس علي حسين علي . . . انتظري ! هذه بطاقة من نوع آخر : محسن حنتوش الشوملي ، مقاول بناء . . . وهنا ثلاث بطاقات اخرى » .

انتزعت لمياء البطاقات من يدي ، وراحت تقلّبها ، ثم اطلقت احدى ضحكاتها البديعة :

ـ « ولكن الصورة هي هي ! . . في كل بطاقة ، نفس الصورة تتكرر . قل لي ، هل انت مزوّر محترف ؟ »

ـ « لم لا ؟ كل شيء جائز » .

تمعنت في الصورة المتكررة ، ثم قلت :

ـ « ربما كانت هذه صورة قديمة لي . . . تعود الى ما قبل عشر سنوات مثلاً ؟ »

ـ « مستحيل ! من اين لك هذا الأنف العريض ، وهذه الشفاه الغليظة ؟ والشعر مختلف تماماً . ابحث في المحفظة جيداً » .

ناولتها المحفظة ، وقلت :

ـ « أفرغيها أنت ! قد تجدين فيها صورة لي على الأقل » .

أخذتها ، ودسّت اصابعها في كل ثنية منها . لا شيء ، سوى بضع اوراق نقدية !

أعادتها إليّ وقالت :

ـ « كما ظننت ، والحمد لله ! سيبقى لي أنا أن اكشف لك عن اسمك الحقيقي » .

نظرت اليها يائساً وهي تعود الى كرسيها :

ـ « أنا راضٍ بالاسم الذي كرمتموني به هذه الليلة : الدكتور نمر علوان » .

وأعدت المحفظة مع البطاقات الى جيبي .

ـ « هل تعرف شيئاً عنه ؟ »

ـ « يبدو أنه شخصية مهمة . وقد كتب احدهم كتاباً عنه بعنوان « المعلوم والمجهول » .

فضحكت وهي تنفث دخان سيكارتها :

ـ « من اختراع عزّام ابو الهور » .

ـ « ربما . او عليوي أبو الأزرار ؟ اسمعي يا آنسة . الساعة متأخرة ، كما ترين . ( نظرت الى ساعتي ) . تخطّت الواحدة والنصف . ألا تظنين ان الوقت قد حان لانصرافي ؟ »

ـ « هل سئمتنا بهذه السرعة ؟ »

ـ « تقولين « سئمتنا » ؟ أعن السأم تتحدثين ؟ ولكنني تيقنت الآن

انكم جئتم بي هنا نتيجة لخطأ ما ، مقصود او غير مقصود ، لست ادري » .

ـ « أبدا . لم يكن هناك أي خطأ . وسأقول لك بعد قليل من أنت ، لكي تطمئن إلى أنه لم يكن هناك أي خطأ . وانس هذه البطاقات التي في محفظتك » .

ـ « اذن تعرفي من أنا ؟ »

ـ « طبعا » .

ووجدتني اقف على قدميّ امامها ، وأتوسل اليها :

ـ « من أنا ؟ بربك من أنا ؟ »

ـ « سأخبرك بعد قليل . تفضل ، اجلس ، ريثما أغلي فنجانين من القهوة . سكّر قليل ؟ »

قالت ذلك بأقصى ما تستطيع من دلال واغراء ، ثم قامت وتوجهت الى باب جانبي خرجت منه ، لعله يؤدّي الى مطبخ . وعدت الى مقعدي وأنا ارنو الى الباب بانتظار هذه المرأة الغامضة التي تأكد لي انها تتلذذ بلعبتها الغريبة معي على نحو شاذ لا أفهمه . كنت واثقاً من أنها لا تعرف من أنا ، ولا تعرف شيئا عني ، ولكن راق لها ان تبقيني معرّضاً لإغرائها ، ربما لأن في ذلك تأكيداً لها على فتنتها وقدرتها على التحكّم برجل تدفعه الى التصرّف حسب اهوائها كيفما ووقتما تشاء . وذكّرتني ـ لا بسعاد التي ما زلت اكن لها حبا ، لم تنل منه علاقة صعبة مضطربة دامت طيلة السنوات السبع الماضية ـ بل بصديقتها يسرى المفتي، وهي التي جاءت فترة في حياتي لم اكن استطيع فيها البقاء يومين دون ان اراها أو احدثها بالتلفون ، ولو لدقيقتين . كان ذلك قبل بضع سنوات ، يوم اقحمتني في نطاق ضيق من تجربة زعزعت كياني حتى الجنون . ( رائع ! بدأت اتذكر شيئاً من الماضي ! ولكن . . . اتذكر سعاد ، واتذكر يسرى ، ولا استطيع ان

أتذكر اسمي ؟ ) كانت يسرى تعيش سنوات الفورة من انوثتها المتفجرة ، المشفوعة بجمال في الوجه والقوام تلتوي له أعناق الرجال ، بل وأعناق النساء ، أينما مشت . وقد استجابت لـلاغراءات التي تـلاحقها بعنف متصاعد . وكان عليها ـ او هكذا هي ظنت ـ أن تثبت لنفسها أن جمالها لم يكن وهماً منها ، وان هذا الجمال ، اذ يجتذب الرجال ، يجب ان يجتذب عشاقاً يتولّهون بها ، ويتصرّفون تصرّفات هوجاء من أجلها ، ويسمعونها كلاماً ككلام الشعراء . فاستجابت للاغراء ـ ولو بمقدار . لأنها كانت في الوقت نفسه تخشى التورّط ، وتجهد في تجنّبه . فهي إنما تلتذّ باقتناص الاهتمام والشغف من الآخرين اكثر مما تلتذّ بأن تهتم هي او تشغف بهم . فاذا سمحت لرجل بأن يقبّلها في زاوية مظلمة ، فإنها لا تشتهيه هو بالذات ، بالضرورة . واذا كشفت عن نهديها لمعجب ، او سمحت ليده بالزحف على فخذها ، فهي إنما تلتذّ لنفسها ، بنفسها . وتكاد حينئذ ان تعرف ذروة المتعة ، دون أن يهمها من سبّبها . . . جمالها كان لها وسيلة لاجتذاب اللمسة او القبلة التي يستمر بها خيالها حتى النهاية التي باتت تطلبها اكثر فأكثر . واذا أتيح لها أن تختلي بالعاشق المزعوم ، كانت متعتها الأولى ، والكبرى ، هي رؤيته يتمعّن في جمال جسدها ، ويمرغ وجهه كالحيوان في روعة بطنها او فخذيها . واذا امتلكها ، وهو يحسب أنه حقاً امتلكها ، لن يعلم أنها تغلق عينيها دونه ، وتتطوّح في وعيها المغلق دونه ايضاً ، في جحيم لذتها المتفرّدة ، الخاصة ، التي لن تشارك احداً فيها . إنها تمتلكه وفق شروطها هي ، ولا تتيح له ان يقبض على شيء من ذاتها الجوهرية حين يغادرها . سيذكر العاشق متعته بما فعل ، ولكن ما فعل ينتهي عند ذلك الحد . إنه لن يحمل منها أية عاطفة ، أو أي توق . ولعله سيكتشف أنها استخدمته وسيلة وليس غاية . وهي عندما تنصرف عنه لا تحمل عنه اية صورة جسدية او عاطفية ، فيما عدا وعي الهياج الجنسي الذي استسلمت له ، طلبا لرعشتها الجامحة التي تريد لها ان تتكرر . وقد تتكرر بينها وبين نفسها ، حتى تُنْهك أعضاؤها لذةً وإعياءً ، وتستسلم بعدها لنوم عميق اسود يخلو من كل حلم . . . كل ذلك اكتشفته بنفسي

وعانيت منه ما عانيت . وعدت يومها راكضاً الى العزيزة سعاد ، عسى ان تنقذني منه .

تـذكرت ذلـك كله بوضـوح ، وخطر لي أن احـذر من أن تتكـرر التجربة مع هذه الفتاة الغريبة ، لمياء ، عفراء ، بعد هذه السنوات كلها . ومددت يدي الى أحد الكتابين اللذين على الطاولة ، وكـان قد جـذبني عنـوانه منـذ ان وقعت عيني عليه عنـد دخولنـا : « البديـل » . وازجـاء للوقت ، الى ان تعود رفيقتي بالقهوة ، رحت اتصفحه دونما تركيز . واذا عيني تصدم باسم يتكرر على صفحاته : « يسرى المفتي » ! غير معقول ! وعنـدما ركـزت انتباهي عـلى بعض الفقرات ، عثرت على فقـرة تقـول بالضبط : « . . . جاءت فترة في حياتي لم اكن استطيع فيها البقاء يـومين دون ان اراها او احدثها بالتلفون ، ولو لدقيقتين . كان ذلك قبـل بضع سنـوات ، يوم اقحمتني في نـطاق ضيّق من تجـربـة زعـزعت كيـاني حتى الجنـون . كانت يسـرى تعيش سنـوات الفـورة من انـوثتهـا المتفجّـرة ، المشفوعة بجمال في الوجه والقوام تلتوي له اعنـاق الرجـال ، بل أعنـاق النساء ، اينما مشت . . . »

ذهلت . ولما استمررت في القراءة ، اصابني الذعر ، وجعل قلبي يخفق بسرعة ظالمة . هل كان الكتاب يتحدث عني ، عن تجربتي ـ أم أنني بخدعة رهيبة من ذاكرتي اللعينة انما كنت استعيد اسطراً قرأتها في كتاب ، فتوهمت انني صاحبها ، وبطلها ؟ « البديل » ! لعلني كنت قرأت الكتاب قبل أيام ـ فعنوانه مألوف جدّا لدي . . . أنا اذن لم أعرف في حياتي امرأة تـدعى يسرى المفتي . . . إنني ازعم لنفسي تجـربـة لم أمـارسهـا إلاّ عـلى صفحات كتاب قرأته . . . إنني لا أتذكر شيئاً حقيقيا مارسته بنفسي ! واذا كنت لا اذكر اسمي الذي لازمني طيلة عمري ، فكيف اذكر ما كان زائلاً عني مع زوال الأيام والمشاهد ؟

ولكنني لم أجزم حتى بوهمي . ربما كانت الخدعة من نوع غير الذي ظننت . أليس من المحتمل ، بعد كل الذي جرى هذه الليلة ، ان يكون

هذا الكتاب بالفعل قصة حياتي ؟ وكيف يمكن ان يكون ذلك ، الا اذا كنت أنا الذي كتبته ؟ . . ولكنني ـ وهنا المصيبة ـ لا اذكر أبداً انني كتبت يوماً كتاباً . . . أف ! أنا ـ من أنا ؟ أنا أقرأ كتباً ، ولكنني لا اكتبها . . . انني ضحية غلطة بذيئة . . . اين هذه الفاجرة ، وقهوتها ! أين انت يا عفراء ، يا لمياء ، يا سعاد ، يا يسرى المفتي ؟

وبكل عزمي ، قذفت بالكتاب على باب المطبخ ، وقمت إليه ، ودفعته بعنف ، مصمما على مجابهة نهائية تحسم الموقف .

رأيت امرأة توشك ان تصب القهوة من ركوة في يدها في اربعة فناجين صُفَّت على صينيّة فضية ، في مطبخ صغير ، من نوع ما يسمى « كتشينت » ، وهو يجعل عادة ملحقاً بغرفة نوم مترفة . وكان له فعلاً باب آخر في الحائط المقابل .

ـ « أفزعتني ! » صاحت المرأة ، والركوة ترتجف في يدها . « ماذا جرى لك ! لماذا لا تنتظر ؟ »

فصرخت :

ـ « أأنت هنا ؟ ! »

كانت الواقفة امامي هي الفتاة الأخرى ، متهمتي في محاكمة اول الليل . كانت ترتدي ما يشبه الزي الرسمي : تنورة برتقالية ، مع بلوز برتقالي ، وقبّعة صغيرة ، ايضاً برتقالية ، تحتلّ أعلى شعرها ، وقد مالت الى ناحية من جبينها .

وقبل ان تجيب ، انفجرت في كلام لا أعي فيه سوى غضبي ، وإحساسي بالمهانة : نسيت حتى اسمك ! الساقي . . آ . . الساعي . . . هيفاء الساعي . . . آين صديقتك ؟ أين اختفت ؟ وما هذا الزيّ السخيف الذي تلبسينه ؟ هل انت مضيفة في طائرة ؟ ولمن تصبّين هذه الفناجين الأربعة ؟ وما معنى ان تتركوني وحدي انتظر قهوة لا تجيء ؟ وما

معنى هذا البديل ، ويسرى المفتي ، وسعاد ، وعليوي أبو الأزرار ؟ . . »

اختنقت بكلماتي الخالية من كل معنى . وهيفاء ما زالت تحدّق إليّ، وقد جمدت مكانها ، والركوة تتراشق بمحتواها من فعل الرجفة في يدها . لقد بدا عليها الرعب حقاً ، حتى أنها رفعت كفها الأخرى امامها ، متوترة الأصابع ، كأنها تتفادى ضربة سأهوي بها على وجهها .

فزعقت ، وصوتي ما زال على حدته ، اسمعه وكأنه ليس بصوتي . فليس من عادتي ان ازعق هكذا على أحد ، حتى عندما يستبد بي الغضب : « طيب ، طيب ، طيب ! . . لا تخافي ! أنا لا أهاجم الناس . ولا اضرب النساء . . . من أيّ جهنم حمراء طلعت ؟ . . »

لا بدّ اني بدوت أشبه بالمجانين في وقفتي تلك وصراخي الهذياني . وخيّل إليّ أن هيفاء سترشق القهوة في وجهي إن انا تقدمت منها . غير أنها استعادت رباطة جأشها بسرعة . بل إنها دنت مني ، وربتت على خدي بلطف ، وهي تقول : « حقّك . . . حقك أن تغضب . . . لكل شيء حدود . حقك . ألا تريد قهوتك ؟ أتسمح لي بأن أصبّها ؟ أرجوك . . . » .

عادت الى الفناجين الأربعة ، وأخذت تصبّ القليل في كل منها ، مرة بعد مرة ، إلى أن ملأتها كلها ، وأنا اراقبها متمالكاً اعصابي . وقالت :

- « راحت القشطة ! تطرطشت من الركوة . . . »

ورفعت عينيها الكحيلتين إليّ بمكر : « الحق عليك . . . خوّفتني » .

ثم حملت الصينيّة بكلتا يديها ، وقالت :

- « هيا ، إلحقني . لست انت الوحيد الذي ينتظر » . غمزتني بعينها غمزة حلوة ، واضافت :

- « مهما يحدث ، ابق معي ، هه ؟ ولكن ، اولاً ، افتح لي هذا

الباب » .

تمتمت : « في حياتي كلها لم أفتح أبواباً بقدر ما فتحت هذه الليلة » . وفتحته ، متوقعاً أن ارى غرفة نوم كاملة الأثاث ، بفراش عريض ، ولعل في الفراش رجلاً ممدَّدا ، او امرأة ، او رجلاً وامرأة معاً . من يدري ؟ وعبرت هيفاء امامي ، ولحقت بها .

متى كنت سأتعلم انني سأرى دائماً غير ما أتوقّع ؟ متى كنت سأتعلّم ان آخذ الامور كما تأتي ، الا أدهش لجديد او مفاجأة ؟

رأيت فعلاً رجلاً ممدَّداً ، ولكن لا في الفراش . كان ممددا على منضدة التشريح . الغرفة ـ غرفة عمليات . والأضواء فيها قوية باهرة . وهناك طبيب جراح في معطفه الأبيض الطويل ، بيده مبضع ، وعلى فمه كمامة واقية . وبقربه وقفت ممرّضة ـ أم أنها طبيبة ؟ ومن تكون الطبيبة سوى عفراء ، لمياء ، يسرى المفتي ؟ عرفتها في الحال ، رغم كمامتها الواقية ، ومعطفها الطبي .

وكانت هناك ممرّضات لم اتبين أيا منهن . وكان هناك أطبّاء آخرون ، وتلاميذ . وكان ثمة مدرّج قعد في صفوفه عدد كبير من الطلاّب والطالبات يتابعون العملية الجراحية ، فيما يبدو ، ويدونون الملاحظات في دفاترهم .

رغم دخولنا الى هذا المشهد بصمت تام ، فإن الأعين كلها توجّهت نحونا . وللحال ، رفع الجراح عينيه في اتجاهنا ، وألقى عنه المبضع ، ورفع الواقية عن فمه ، كما ألقى عنه طاقيته التي تحفظ شعره الأشيب الكثيف ، وقال بحرارة : « اهلاً ومرحبا بمفكرنا الكبير ! » ونزع قفازه المطاطي وسلّمه لممرّضة قريبة منه .

وهنا تقدّمت هيفاء مني بالصينية ، فأخذت فنجان القهوة ، ثم ذهبت الى الجراح ، فالتقط فنجانه ، وكذلك فعلت مع الطبيبة التي رفعت هي أيضاً الكمامة عن شفتيها ، ونزعت قفازها . اما الفنجان الرابع ،

فأخذته هيفاء نفسها ، وقد عادت الى جانبي ، كأنها تبقيني في رعايتها .

وقال الجراح بنبرة عالية مفعمة بـالحيويـة ـ رجل يقـارب الستين ، قويّ التقاطيـع ، كثيف الحاجبـين أبيضهما ، غـزير الشعـر ، وقد ابيضّ معظمه : صـورة معبّرة ، حيّـة ، للطبيب الحكيم الفيلسوف كـما نتخيله ونتمنى ان نراه ـ قال وهو يؤشر باليد حاملة الفنجان إليّ :

ـ « ولا تدهشوا الآن اذ ترون امامكم مـرة أخرى نمـر علوان ، او عاذل الطيبي ، او علوان عادل ، او الطيبي النمر » .

أخذ رشفة من فنجانه ( وفعلت مثله ، وأنا أحث نفسي على الصبر والتحمّل ) ، وأكمل : « كلها اسماء لرجل واحد ، بل إنها كلها في الواقع وفي نهاية المطاف ، كما سترون ، اسم واحد لا غير ، لمسمّى مشطور ربما اكثر من شطرين ، قد يلتئم يوماً ، او لا يلتئم ، في واحد ـ هو هذا الذي رأيتموه ملقى على منضدة التشريح . . . الكاميرا ، رجاء ، لكي توضّح التطابق التام بين وجه الرجل الذي على المنضدة ، ووجه ضيفنا الكبير » .

ورأيت على الحائط امامي ، على شاشة تلفـزيونيـة ، لقطة مكبّـرة لوجه الرجل ، ثم لوجهي . او ما اعتبره الجراح، او اعتبرته الكـاميرا ، وجهي ، لأنني ، قسماً بالله ، لم اعرف أيّا من الوجهين « المتطابقين » .

واستـأنف الجراح الاستـاذ : « لعلكم تذكـرون الشاعـر الفـرنسي اندريه بريتون ، وعبارته المشهورة ، التي كتبها أيام شبابـه وهو في حـالة شبه حلمية : « هناك رجل مشطور شطرين بالنافذة » .

كـانت تلك ، كـما تعلمـون ، بـدايـة نـظريتـه حـول الكتــابـة الأوتـوماتيـة ، او الكتابـة التلقائيـة ، والتي آمن بها ومـارسها بعـد ذلـك الكثيرون من اقرانه . خذوا الحكمة من افواه المجانين ! لأن هذا هو مـا اراده هـو وزملاؤه من الشعـراء والفنانـين ان يوحـوا بـه جميعـا ، فـأرادوا لأنفسهم نـوعاً من الجنـون ، يؤكـد لهم في الـوقت نفسـه روعـة الكيـان الانساني ، وتعقيده ، وامتلاءه بكل ما لم يستطع مفكـرونا تعليله منـطقيا

ونهائيا ، مع ان حضارات الانسان كلها تكاد تنبثق منه . فهذا الرجل المشطور شطرين ، الذي حدس به الشاعر الفرنسي ، انما هو الانسان وهو يحاول ان يرى بعينيه كلا الوجهين من كيانه ، ويوحّد بينهما : الوعي واللاوعي ، العقل والغريزة ، الواقع والرؤيا . ولنا ان نقول ان احد هذين النقيضين ـ والأدقّ هو ان نقول : احد هذه النقائض ـ واقف امامنا الآن . والآخر ، وقد تجسّد بطريقة سنحاول تفسيرها في مرة قادمة ، نائم على المشرحة . ولكن الواحد يحوي الآخر . كلاهما نصف ، وكلاهما واحد ، في آن واحد . ولا حاجة بي لتذكيركم ، كما ستذكّركم بعد قليل زميلتي الدكتورة لمياء هنا ، بأن الكثير من ابداع الفنانين والشعراء ، بل وابداع الدارسين ، في عصرنا كما في العصور السالفة ـ تذكّروا سومر وبابل ومصر الفراعنة ـ هو محاولة لإطلاق الوحش الغافي في الدواخل . واقول « الوحش » تجوّزا : إنه كائن حيّ جدا ، خرافي جدا ، جميل جدا ، قبيح جدا . كائن عارم الشهية والشهوة لكل ما في الحياة ، ما دام الدم يدفق في شرايينه . اذن ، فإن الكثير من الابداع ، كما قلت ، محاولة لاطلاق الوحش الغافي في الدواخل ، وهو في الوقت نفسه ـ وهذا هو المهم بالنسبة لنا كمجتمع متحضر يأخذ بالعقل والمنطق قبل كل شيء ـ محاولة لمصالحة هذا الوحش ( الذي كثيراً ما تصعب السيطرة عليه ، وهو شديد اللجاجة بمطالبه ) مع الانسان المتمدن الذي يحيا وعيناه مفتوحتان على العالم الحقيقي ، العالم الفيزيائي الملموس . . . ويبقى السؤال : هل هذه المصالحة ممكنة ؟ واذا كانت ممكنة ، هل هي تامة ومطلقة ؟ واذا حدث الشقاق ، وتصدّع الكيان من جديد ؟ . . . دكتورة لمياء ، لعلك تتفضلين فتجيبي عن بعض هذه الأسئلة » .

بكل رقة ، بكل أناقة ، ولكن بانضباط الطبيبة ودقتها في الحركة ، وضعت لمياء عنها فنجانها جانباً ، وتناولت فنجان الجرّاح من يده ، ووضعته جانباً ، ثم تقدمت مني وأخذت فنجاني ، ونظرت في عينيّ نظرة عميقة ، طويلة . ( هل كانت الطبيبة تُعنى بجمع الفناجين ، لولا أنها

ارادت الدنو مني لتستطيع ان تخترقني حتى الأعماق بعينيها الواسعتين ؟ )
آه منك يا دكتورة ! أأطلقت اذن فيّ ، وما زلت تطلقين ، وحشاً غافيا لا علم لي به ؟ ولكنه وحش تحكّمت به ، وخلعت انيابه ، وجعلته يريد ان يـأكـل من راحتي يـديـك ! ومن قـاع ذاكـرتي المشـطورة ، المفتّتـة ، المتلاشية ، تصاعدت أبيات شعرٍ تتفجّر كالنوافير : ألف قصيدة تراشقت دفعة واحدة من حنايا جمجمتي ، من مسام جلدي ، وبكل لغات الدنيـا التي اعرفها والتي لا اعرفها . . . وشعرت ان شفتيّ تتحركـان بما يـوحي إليّ أنني اقول لها ، وأنا لا أفهم بالضبط ما أقول :

« أداعب كل ما هو أنتِ
وفي كل ما سيبقى هو أنتِ
أسمع الفحيح النغميّ المتوالي
لأذرعك التي لا تحصى -
أفعى فذة متوحدة بين الاشجار كلها . . . »

ولحـظت أن الجراح ، وجمهـور الأطبـاء والممـرضـات والـطلبـة ، وهيفاء ، يراقبون الأفعى المتوحدة باهتمام مثلي .

ولست ادري إن كنت فعلاً نطقتُ بمـا حسبتُ أنني قلته ، ولكنني تأكدت أنها حدستْ به ، بل ربما سمعته كله بأذنها الداخلية . ويبدو أنها تقصّدت ان تواجه عدسـة الكاميـرة ( او عدسـات الكاميـرات ؟ ) ، إذ تـراجعت عني ، وأخـذت لهـا مكـانـاً عـنـد رأس الـرجـل الملقى عـلى المشرحة . وقالت بصوت المحـاضر الواثق من معـرفته وعلمـه ، موجهـة الكلام للجمهور ، رغم أنها تركّز مغظم نظراتها عليّ :

- « استـاذي الجليـل الـدكتـور عـلي التـواب ، أيهـا الـزميـلات والـزملاء ، لا استبعـد أن يكون ذهن مفكّـرنا الكبـير ، الماثـل امامنـا ، يفيض الآن بـالشعر ، سرّا . . . ولا استبعد ان يكـون معـظمـه شعـراً غزليا ، مع ان ضيفنا ، فيما أعلم ، لا يكتب الشعر . لعـل ذلك بعض من محاولة الذات مصالحة نفسها ، مصالحة الوحش مع الملاك ، مصالحة

الحلم مع الواقع ، مصالحة المستحيل مع الممكن . ونحن لو استقرأنا بعض ما فاض به ذهن صديقنا الممدّد هنا ، الدكتور نمر علوان الآخر ، لربما وجدناه نقيضاً لما يفكّر فيه ذهنه البديل ، الواقف هناك . . . »

ارتفعت بناظريها نحو السقف ، وقد انفرجت شفتاها ، كأنها تصغي الى صوت خفيّ بعيد ، تتصيّده بشيء من الصعوبة . ثم بدت كأنها تردّده نيابة عن صديقها الملقى امامها :

ـ «القمر التمام يفيض بنوره على بيادر الخريف
وتتساقط الظلال من على اسطح المنازل
في نوافذها الخاليات يقيم الصمت مملكته
ولكن من بين جذوع الاسطح تخرج الجرذان
وتتراكض هنا وهناك ، تثرثر . . .

« لاحظوا : الصمت ، الحزن ، رؤى الطفولة ـ الطبيعة وهي سادرة ، ساكنة ، مستسلمة ، وليس فيها ما يثرثر سوى جرذان البيادر . . . هنا السلام ، والدعة ، وهنا حزن الدهور الذي ينسكب كالنغم القديم مع « الظلال من على أسطح المنازل / في نوافذها الخاليات يقيم الصمت مملكته . . » » .

وبدون إنذار ، تغيّرت لهجتها ، وجابهتني ، وهي تمدّ اصبعها نحوي كأنها تتهمني :

ـ « دكتور ، ما الذي ستقوله انت ، إن أنا أمرتك الآن بأن تفرغ ما بذهنك على الفور ؟ تكلم ! انطق ! »

تلفّت حولي ، واذا الكل يريدني أن انطق . ولم يكن لي الا ان التقط كلمات من نوافير القصائد التي ما زالت تتفجر من أعماق جمجمتي :

ـ « فلاةٌ من الشوك تحيط بالمدينة

ومن العتبات المدمّاة
يطارد القمرُ النساءَ الراعبات
ومن كل بوابةٍ تنصبّ الذئاب الجائعة . . . »

ألقيت الكلمات ببطء ، ومددت فيها أحرف المدّ ما استطعت ، مثقلاً كل عبارة بدرامة البؤس والهول . غير أن لمياء رفعت يمناها وصاحت :

- « كفى ! كفى ! سيدي الاستاذ ، إنه يراوغ ! إنه يلبس قناعاً آخر . . . دكتور عادل ، ضع عنك قناعك هذا الآن ، لدقيقتين او ثلاث ، وأفرغ ما بذهنك مرة أخرى ! »

واستجبت دون ارادة ودون وعي مني :

- « أعينيكِ أهوى
أم شفتيك ؟
أيديكِ أعشقْ
أم الفارعَ هذا من قوامك ؟
حيرتي هذي اغفريها
إذ أنا
بعينيك آناً اتعلّقْ
وآناً بقوامك ،
فكل ما فيك
للوهلة الأولى
يُستحبُّ
وللوهلة الأخرى
هو يُعشقْ . . . »

رغم ما توهمت من رصانة الموقف ، بل جهامته ، فإن الدكتورة لمياء اندفعت نحوي ، رافعة يدها ، وهي تضحك وتقول :

ـ « لا ، لا ! ليس هذا ما عنيت ! »

ونظرتْ حولها نظرات الحيرة ، واستمرت في ضحكتها التي عبّرت عن حرجها ، وربما استحيائها . ولكنني اصررت على تفريغ ما بـذهني ، بالضبط كما طلبت ، ولم يكن في تلك اللحظة في ذهني إلا ما قلتـه ، وأنا أعلم أن الضحك منها قد يكون دليل احتجاج ، ولكنـه في الوقت نفسـه دليل رضا وقبول :

ـ « والضحكة منك اذ تأتي
رنينَ جنونٍ لكل سامع
تثير في النفس صدى
للذّة
ليس في الدنيا مثلها
سوى لذة عشقي
للعينين منكِ
ولذة توقي
لاحتواء الفارع هذا
من قوامك المتثني
وهو يدري أنه
يُضرم النار في
كل عرقٍ من عروقي ـ
أم أنه ليس يدري ؟
إضحكي ، طبيبتي ،
وتثنّي ، فإني
معلّق العينين
بعينيك ،
شفتيك ، ويديكِ
وبكل عضوٍ صاغه الله
أعجوبة فيكِ ! »

انفجر المكان بالتصفيق ، حتى الجرّاح الكبير صفّق . والطلبة راحوا جميعاً يصفقون ، بل إنهم حولوا تصفيقهم الى ايقاع بالكفّ استمروا به ، إفصاحاً عن إعجابهم . لقد تمتعوا ولا ريب بتوجيه ذلك الغزل الى استاذتهم ، كأنني اطلقت عنهم خزين قلوبهم تجاه طبيبةٍ يتمنّونها عشيقة اكثر مما يريدونها استاذة محاضرة . وبقيت أنا مسمّرا في موضعي ، لا ادري كيف اتصرّف إزاء ذلك كله . ولكنني لا انكر انني احسست برضا عميق عن نفسي ، وليكن ما يكون !

بل إن لمياء نفسها ، مهما تظاهرت بالعكس ، لم تكن أقلَّ رضا عما قلت ، او أقلّ إعجاباً به . لقد انتظرت حتى استقرّت موجة التصفيق ، وساد الصمت مرة اخرى . وبكل جدّية قالت :

ـ « إننا في حالة تأرجح شديد ، من طرف الى طرف . وسرعة التأرجح لا تسمح لنا بالفرز الدقيق ، إذ تتقاطع المواقف في مناطق وسطى هي أقرب الى تجربة الانسان في بقائه اليومي : إنه باستمرار يحاول التمسّك بنقطة ما ساكنة ، صاحية ، ولكن القوى المتحرّكة لا تكفّ عن فعلها ، فتمنعه عن أي سكون حقيقي ، أيّ صحوٍ حقيقي . وهمّنا ، كباحثين عن الحقيقة بصورها المجهولة الكثيرة ، هو ان نستطيع وقف الحركة وهي في الطرف الأقصى هذا أو ذاك ، وفي لحظة « الوقف » تلك ، إذ نعزلها ، نحاول أن نرىٍ ما الذي فعلاً يجري في الذهن ، في قرارة النفس الانسانية ، حيث كلّ شيء خطير ومهم . إذ لو سألنا هذا الرجل الذي امامنا ، كما لو سألنا اي واحد منا : أنت ، من أنت ؟ لأجاب ، كما اجاب احد الفلاسفة : بالنسبة للكون ، أنا لا شيء . بالنسبة لنفسي ، أنا كل شيء ! »

وهنا تدخل الدكتور علي التواب :

ـ « اسمحي لي ، دكتورة لمياء ، بإلقاء نظرة على صاحبنا نمر علوان ، لأنه ربما اخذ يستعيد وعيه قبل ان ننجز مهمتنا » .

وانحنى ليدقق في ملامح الرجل الممدد على المنضدة ، وأنا ارى صورة وجهه مكبّرة على شاشة التلفزيون ، وهي تتناوب مع صورة وجهي المزعوم ـ وقد تطابقت شبهاً مزعجاً مع الصورة الأخرى . ثم رفع الجرّاح رأسه ، وأجرى اصابعه في شعره الغزير يعيد الى مكانه ما تساقط منه على جبينه ، وجاء صوته مجلجلاً :

ـ « رائع ، رائع ! إنني الآن اتذكر قول ذاك الكاتب الانكليزي ـ ام انه ايرلندي ؟ ـ ذلك الكاتب الساخر اللاذع جوناثان سويفت : « الحياة مأساة مضحكة ، وذلك اردأ أنواع التأليف » . ولكن سواء أكانت الحياة مأساة مضحكة ، ام مهزلة فاجعة ، فإن علينا ان نستمر بها ، مهما يكن تأليفها رديئاً . أي أنّ علينا ان نتحمل تبعات التأليف الرديء ، بكل ما في وسعنا من نبل وكبرياء . وهذا مما يعقّد علينا الأمر : أين المأساة هنا وأين المهزلة ؟ أيها المبكي وأيها المضحك ؟ وأين يتداخل الاثنان ، ولماذا يتداخلان ؟ ثم إننا لو تفحّصنا التطور الذي نراه في فكر وحياة نمر علوان ، لرأينا الكثير من ذلك : إنه يتحول في بحر عشرين سنة من المتمرد ، الرافض ، المحرّض ، الى ذلك الذي كان منذ البداية متداخلا في تكوينه ـ الى المعلم ، الشارح ، اللابس رداء النبوّة ، عن حق او غير حق . إنه يتحول من الابن الضال الى الأب المهيمن . من الشعبي الى النخبوي ـ وكثيراً ما يحتوي الواحد الآخر . أليس في ذلك كله اشارة الى ذلك الشرخ العميق في الذات ، هذه الذات التي تصطرع فيها الأضداد اصطراع الكافر مع المؤمن ، اصطراع الماجن الذي لا يبغي من الدنيا سوى لذته ، مع الورع الذي يبكي على الدنيا ولا يبغي منها سوى رضا خالقه ؟ . . . »

توقف قليلاً كأنه يريد من الجمهور تأمّلا كافيا في عمق حكمته وروائع كشفه ، وأنا لا أدري إن كان ما زال يتحدث عني ، او عن بشر آخر اختلقه في تلك اللحظة ، ليبرر عملية جراحية ، عملية طبية من نوع ما ، لم اطلع عليها . ولذا سررت عندما تدخلت لمياء في تلك

اللحظة بالذات ، ببراعتها الخاصة :

« سيدي الاستاذ ، علينا ان نتجنب التبسيط الزائد ، وأن نتحلّى بالجرأة في النفاذ الى الظلمات الأكثف والأخطر في ثنايا الذات التي تحدثت عنها . . . لو كان كل شيء قابلاً للعدّ والفرز والفهم ، لهان الأمر . ولكن سيطرة الأحلام الغامضة ، التي لا نعي منها إلّا القليل عند النوم ، تبقى فاعلة في ساعات اليقظة دون ان نعيها : وهنا الصعوبة . إنها مستمرة في إقحام الظلمة وأشباحها علينا ، بالضبط حيث نريد النور ورؤاه الساطعة . والذي اراه هو ان عادل الطيبي ، أو نمر علوان ، وليكن اسمه غير ذلك بالمرّة ، أقحم نفسه بالضبط حيث لم تعد ذاته تفقه ذاتها ، حيث تعطلت عنده الذاكرة - ذاكرة التجربة - والارادة ، حيث لم يبق له إلا ردّة الفعل الغريزية لكل ما يلقاه ، دون القدرة على ربط اي شيء بأمر سبقه أو تلاه . والذي نتوقعه في هذه الحالة ، هو ألّا يتعدى منطقه - إن جاز لنا أن نسمّيه كذلك - مجرّد الهذيان . . . »

لا ! كان ذلك اكثر مما اطيق ! لئن كنت فقدت ذاكرتي ، فإنني لن أرضى بأن أتهم بفقدان المنطق والعقل كذلك . فقاطعت الطبيبة الجميلة :

- « قد تحكمون على شيء هو من خلق خيالكم ، مدفوعين بأهوائكم الخاصة ، فتسمّونه هذياناً . أما أنا فأرفض ان ينسب الهذيان إليّ . إني لا أتحدث إلّا عما يتأجج في داخلي ، في أحشائي ، حيث النار أبداً تشتعل ، وهي النار التي اريد ان ينتشر لهيبها في كل اتجاه ، عسى أن يصيبكم شيء من اوارها ، من قوة حرقها . . . أيها الاستاذ الجليل ، ايتها الاستاذة الجليلة ، ايها الطلبة الأعزّاء ، « لو ان الغيوم تحمل الغبار كما تحمل الماء / لأمطرت علينا دماء الذين عشقناهم . . . » إن كنتم تتصورون أن في هذا القول هذياناً ، فإنكم في محنة لن يستطيع أحد إنقاذكم منها . . . قد أكون شطرت شطرين ، او ألف شطر . ولكنني

أحمل الأشطر والشظايا والكِسَر كلها بين جنبيّ ، وأنا اعلم ، حتى لو فقدت ذاكرتي ، أنني رغم ذلك سأتكلم بما تفهمونه او لا تفهمونه ، مستمدًا القدرة على ذلك من ذاكرات كثيرة تجمّعت في داخلي ، كما تجمّعت الأشطر والشظايا . ومن قال إن عليها أن تلتئم وتتوحّد ، ما دامت هي هناك ، موجودة ، فاعلة ، تكافح لكي تصعد الى منطقة الضوء ، الى الوعي القلق الرجراج ، المهدّد بالسقوط ، بدوره ، الى منطقة اخرى من الظلام ؟ كل ذاكرة فيّ هي جمرة متوقّدة كساها الرماد ، والجمر كثير ، ولكن يا للبؤس ! فإن الرماد اكثر ، اكثر بكثير . . . ومن هنا ، فإن التعاسات تتراكم ، والآلام تتراكم . والعواطف الهادرة كأمواج البحر تُحبس في القواقع ، كما الجنّ في قماقم سليمان ، وتحبس معها الصور الرائعة المستحيلة . . . قد أتصور أن من اصابع يديّ ، إذا نفضتهما هكذا ، تتساقط الجنان ـ جنان الله الخالدات على الارض ، والرجال والنساء في عشق ابدي . . . ولكنني اعلم ان اصابعي هذه قد نتساقط منها كذلك التعاسات والحماقات والآثام ، فتحلّ هاويات الجحيم مكان الجنان ، والرجال والنساء في عذاب ابدي . . . وقد مررت بذلك كله في هذه الليلة والليالي الأخريات الطوال ، في هذه الغرفة وفي الغرف الأخريات التي كنت سهوت عن وجودها ، حتى قلت في النهاية ، ماقاله إنسان آخر ، في بلد آخر ، في عصر آخر : « لعل جهنم وحدها تهيىء مأوى لتعاساتي اللعينة » . وهل لملاك بهيّ أن يقتحم الجحيم لينقذ من سعيرها روحاً تتعذب ؟ . . . »

ـ « أترون إلى صحة ما قلت ؟! » صاحت لمياء ، وهي تواجه المدرّج ، وتشير إليّ . « تعطلت عنده ذاكرته وارادته ، ولم يبق له إلاّ ما يتراشق على السطح كالفقاقيع من غير رابط او محور . ولكن تبقى هذه الفقاقيع مهمّة تطالبنا بدرسها . وهو اذ يخلط بين السماء والجحيم ، فإنه يدلل على أن منطقه قد تهشّم ، وأن حسّه بخطاياه وآثامه ، حقيقية كانت او موهومة ، يمزّقه ، دون ان يتخلّى عن توقه ـ الذي هو أيضاً يمزّقه ـ إلى البراءة ، إلى الطُّهر ، إلى ذلك العشق الإلهي الذي يحتلّ

اجزاء منه ، يلمسها بحواسه ولا يلمسها . . . ولو سمحنا له حتى في هذه اللحظة ، أن يسترسل في « كلامه » فإننا لن نسمع منه إلا مزيداً من هذيان من هذا النوع . ولن ننكر أنه قد يكون هذياناً يلذّ لنا سماعه . انما المهمّ ان في هذيانه سوف تثبت الدلائل على معانٍ خفية كثيرة ، ومؤشرات الى كثافات مجهولة ، نتمنى رؤيتها او نلمس الطريق إليها ، ولكننا لن ندركها ـ لن ندركها أبداً » .

قاطعها الجرّاح بكثير من الحدّة :

ـ « اذن ما نفع عمليتنا هذه ، دكتورة لمياء ، إن كنا نقول مقدّماً إننا لن ندرك المعاني الخفية والكثافات المجهولة ؟ ألا ترين أنك تحقنين عنصراً من العبث ، بل أكاد أقول ، من اليأس ، في قضية علمية تعتمد بالضبط على العد ، والفرز ، والتدقيق المجهري طلبا للفهم ؟ . . ولهذا فإنني سأطلب الآن من الدكتور نمر علوان / عادل الطيبي ان يتقدّم للمشرحة ، بعد أن نرفع عنها قرينه ، لنجري المزيد من الفحص والاستقصاء على الدماغ . . . »

فصرخت من مكاني :

ـ « لا ، لا ! انكم جميعاً واهمون ! انكم أنتم الذين تهذون ! وما قريني المفروض ، هذا الذي على المشرحة ، إلا دمية تحاولون ارعابي بها ! »

وانطلقت نحو الرجل الممدّد ، بين الأطباء والممرّضات ، ودفعت الدكتور علي التواب بغلظة ، لكي انكبّ على الرأس الذي جعلوه في شبهي ـ واثقاً من إنه دمية او منحوتة من جبس اتقنوا نحتها وتلوينها . وامسكت الرأس بكلتا يديّ وهززته بفظاظة ، متوقعاً له ان ينفصل عن الجسم . غير أنه ـ ويا للبذاءة ! ـ فتح عينيه ، وحملق بي ، ثم تحرّكت الذراعان ، وانقلب الجسم جانبيا ، ولو بوهن ، كمن يستفيق من الخدر ، ونزل الرجل من على المنضدة في ثوب أبيض طويل ، رغم الاسلاك المختبرية التي كانت عالقة بصدغيه ، وملتفة حول بعض اعضائه .

وعاط الجرّاح ، ممسكا بي لإبعادي عن ضحيته :

- « لا يا رجل ! لا يا رجل ! أفسدت كل شيء ! »

واذا الضحية ، شبيهي المسكين ، يفرك وجهه ، ثم ينزع قناعاً رقيقاً عنه قذف به على الأرض . فتبيّنته ، وصحت :

- « دكتور جاسم ! »
هزّ رأسه ، قائلاً :

- « راسم ، راسم ، الدكتور راسم عزّت ! »

وما كان من الطبيب الجراح علي التوّاب إلاّ أن نزع عن رأسه فروة شعره الغزير بحركة عصبية غضبى ، واذا صلعته الكبيرة تشعّ تحت أضواء البروجكتور ، وقد بللها العرق ، وقبل ان ينزع أيضاً حاجبيه الكثين المستعارين ، صرخت به :

- « عليوي ؟ عرفتك يا عليوي ! فعلتها بي ! فعلتها بي يا عليوي ! »

وأمسكت بتلابيبه ، وأطبقت يديّ على عنقه أريد خنقه . غير انه كان متيناً قويا كالثور ، واستطاع ان يفك يديّ ، ويدفعني عنه بعنف ، وينسحب خفيفاً كالشبح ، قبل ان أعي انني سقطت بين ذراعي شخص امسك بي من الوراء ، وبمساعدة من راسم عزّت ، اسرع بي الى الباب ، حيث ادركت ان الشخص هو هيفاء الساعي ، مضيفة الطائرة . سألتها :

- « أين لمياء ؟ »
أجابت وكأنها مندهشة لسؤالي :
- « لمياء ؟ لمياء راحت . كلّهم راحوا . لم يبق غيرنا في المكان » .

- « أين الأطباء ؟ أين الطلبة ؟ »

أجابني الدكتور راسم ، وهو في ثوبه الأبيض البغيض ، يطمئنني .

« لا بأس ، لا بأس . انت في أيد امينة . هيفاء ، سأترك الدكتور نمر معك . اعطيه كأساً من الماء ليشرب . يجب ان أسرع ! »

وانصرف عنّا فيما يشبه الركض ، وأنا ألحق به صائحاً :

ـ « لا تنس ان تطلب الى عليوي أن يرسل اليّ نسخة من « المعلوم والمجهول ! » يا مزوّر ، يا متآمر ! »

كانت هيفاء ، كصاحبتها ، في منتهى الحزم ومنتهى اللطف معاً . جرّتني الى الخلف لكي لا أركض في إثر راسم ، وهي تقول :

ـ « ما لك ولهذا المسكين ؟ دعنا منه . تعال ، اوشكنا على الانتهاء من الإجراءات » .

ـ « اجراءات ؟ أية اجراءات ؟ »

ـ « ألا تثق بي ؟ »

ـ « جدّا ، جدّا ! كلي ثقة بك ، وبكلٍّ من هم هنا ، وبإخلاصكم جميعا . ستأخذينني الآن إلى عزّام ابو الهور ، ما من شك ، لأنه الوحيد الغائب الذي افتقدناه في الساعات الأخيرة ، الفقيد الحميد . . . »

فاض وجهها حزنا مرة واحدة ، وبصوتٍ كئيب سألتني : « هل سمعت اذن ؟ »

ـ « لا تقوليها ! انتحر ؟ »

ـ « كفى سخرية يا دكتور . مات . . . مات بسكتة قلبية » .

ـ « لا تبكيني ، أطال الله عمرك . أأنت أيضاً تضحكين عليّ ؟ أنت لمياء أخرى » .

أخذت تسير بي في نفق مضـاء ، والسقف المعقود فـوقنا تتـدلّى منه مجموعات من اشكال بلورية ملوّنة تشبه بلورات الجليد ، وهي في دوران بطيء يجعلها في شعشعة مستمرة . وقالت رفيقتي :

ـ « أنا لست لمياء أخرى . تذكّر ! »

ـ « انت أفعى أخرى في جنة لم يخلقها الله ، بل الشيطان » .

ـ « عدنا الى الهذيان ؟ »

ـ « وهـل لي إلا أن اكـرر : لعـلّ جهنم وحـدهـا تهيء مـأوى لتعاساتي اللعينة ! »

ـ « وماذا أقول أنا عن تعاساتي ؟ »

ـ « هيفـاء ، أتهذين أنت أيضـاً ؟ ألا يكفينـا شخص « مشـطور » واحد ؟ »

ـ « آه لو تعلم ! »

ـ « ألديك ما تقولينه لي إذن ؟ حدثيني ، حدثيني ! »

قالت ، دون ان تبطىء من سرعة سيرها :

ـ « ألم تكتشف حتى الآن أنني . . . لست هيفاء الساعي ؟ »

ـ « عجيب ! »

ـ « لن تصدقني . أنا يُسرى ، يسرى المفتي » .

ـ « أنت يُسرى !! »

ـ « لمياء أعمتك ، فما عدت ترى غيرها » .

ـ « ولكن يسـرى ليست حقيقيـة . مجـرّد شخصيـة في روايـة ، في كتاب . . . »

ـ « ما زلت تهذي . ما حيلتي معك ؟ »

ـ « سأصر على موقفي هذه المرة . أنتِ هيفاء الساعي . ولكن ربما كنت تتمنين لو انك يسرى المفتي » .

ـ « أنا ؟ أنا أشقى نساء الأرض » .

وبلهجة لا تخلو من اللؤم ، سألتها :

ـ « في الذين تحبينهم ؟ أم في الذين يحبونك ؟ » وفي الحال ندمت على سؤالي هذا ، وشعرت انها لا تستحق هذا الموقف العدائي مني ، فقلت :

ـ « آسف ، هيفاء . ولكن لماذا تكونين أنت ، دون غيرك ، أشقى نساء الأرض ؟ »

لم تجب . وبقينا مندفعين في سيرنا الى ان بلغنا مكاناً التقى فيه نفقان آخران بنفقنا ، وقد دفق حشد من البشر يتدافعون ، يحمل كل منهم حقيبة او اكثر ، مسرعين في اتجاه البهو العريض ، الذي كدنا نصل اليه ، وهو يموج بالحركة ويضجّ بالضوضاء . وباغتتني بالسؤال :

ـ « اين حقيبتك ؟ »

ـ « ولم الحقيبة ؟ »

ـ « أتسافر بلا حقائب ؟ »

عندها اتضح لي الموقف ، وسألتها :

ـ « هل أنا مسافر ؟ بالطائرة ؟ »

ـ « هذه محطة كبيرة ، تلتقي فيها القطارات ، وتتصل بالمطار الدولي » .

ـ « ولكن ، حكماً على زيك البرتقالي هذا ، ستركبين الطائرة أليس كذلك ؟ »

ـ « ولكن على أي خط ؟ »

ـ « علمي علمك ! أليست بطاقتي عندك ؟ »

- « عندي اوراق خروجك فقط »
- « التي رتبها عليوي ؟ »
- « ولمياء » .

أخرجت من عبّها عدة اوراق مطوية ، بألوان مختلفة . فتحتها ووقفت تدقق فيها . والناس يمرّون بنا مهرولين ، راكضين ، ويصطدمون بنا ، منهم من يعتذر ، ومنهم من لا يعتذر ، ومكبّرات الصوت لا تكف عن ترديد المعلومات عن الطائرات القادمة والمغادرة ، وأسماء الذين يُطلبون لمراجعة الاستعلامات .

في هذه الكثافة البشرية المائجة ، جلب انتباهي وجه طفلة وقفت حائرة بين الناس في فستان أبيض قصير ، وهي تتلفت يميناً ويساراً كأنها تبحث عن أحد ، وفي يدها وردة حمراء . وأحسست بنشوة غريبة في ذلك الجو الصاخب وأنا أطيل النظر إلى وجه الطفلة المشعّ ، ولمحت عينيها الواسعتين البرّاقتين وهما في حركة تمعّن مستمرة في الناس المدوّمين حولها . لا أحسب أنها كانت تزيد سنّا عن ثلاث او أربع سنوات . وهتفت للمضيفة ، مشيراً الى الطفلة :

- « انظري ! انظري هناك إلى أبدع ما خلق الله ! »

وفي تلك الهنيهة بالذات ، وقعت عينا الطفلة عليّ ، كأنها سمعت ما قلت ، وبدا عليها أنها عرفتني ، وجاءت نحوي راكضة من بين العوائق البشرية التي في طريقها . ومدّت يدها إليّ بالوردة الحمراء ، وقالت مثارة وهي تلهث :

- « عمّو فارس ! هذه الوردة لك ! »

صحت وأنا آخذ الوردة :

- « رائعة ، مثلك ! »

ورفعت الطفلة بين ذراعيّ وقبلتُ خدّها . وقبّلتْ هي خدّي . ولما أنزلتها ، قلت لها :

ـ « انتـظري حبيبتي هنا دقيقـة مع آنتي هيفـاء ، ريثما اشتـري لك شيئاً تحبينه » .

ودونما استئذان أسرعت الى أحد حوانيت الحلوى والعطور التي في الجـانب الآخر من القـاعة ، ووجـدت أن في جيبي عدة قـطع نقديـة ، اشتريت بها على عجل مجموعة من الواح الشوكـولاته وأكيـاس الحلوى ، وعدت بها إلى مستقبلتي بالوردة .

غير أنها لم تكن هناك . ولم تكن هيفـاء هناك . والنـاس في دوران لا يهـدأ . ورحت أدور واتلفّت واركض بـين المســافـرين ، والمستقبلين والمودعين ، اتمعّن في كل وجه ، وفي كل قوام ، وفي كل زي . ولا أرى الطفلة الرائعة ، ولا ارى هيفاء .

وشعـرت بضيـاع رهيب لم أشعـر بمثله طيلة تلك الليلة . ووجب قلبي بشدّة موجعة ، وانا ادور واتلفت ، والـوردة في يدي ، والحلوى في اليد الأخرى ، انظر في كل وجـه ، ولا ارى أي وجه ، بـل لا أرى اي انسان ـ حتى اردت البكاء .

ونبّهني صـوت نسـائي عـلى المكبّـرات يقـول : « السيـد فــارس الصقار ، السيد فارس الصقار ، رجاء راجع مكتب الاستعـلامات رقم ٣ . . . »

وغمـرني احساس كـالموج الهـادر أن ذلك النـداء موجـه إليّ ، إليّ أنا . وركضت باحثاً عن مكتب الاستعلامات رقم ٣ ، الى ان وجدته . ولما ذكرت للموظفة انني فارس الصقار ، قالت بلطف :

ـ « كان هنا رجل يبحث عنك » .

وتقدّم مني رجل يلبَس عباءة خليجية ، والكوفية والعقال ، وهتف وهو يعانقني :

ـ « فارس ! الحمد لله على السلامة ! تأخـرت يا رجـل ! . . كيف كانت السفرة ؟ مريحة إن شاء الله ؟ »

قلت :

ـ « ماشي الحال » .

قال : « السيارة في انتظارك » .

ثم اردف :

ـ « أين حقائبك ؟ »

قلت :

ـ « جئت هذه المرة بلا حقائب » .

قال :

ـ « ولا يهمّك ! »

وأخـذ ذراعي وسرنـا بـاتجـاه الخـروج . ولسبب مـا ، تـأملت في بروفيل صديقي ، ثم عنّ لي خاطر جعلني انفجر بالسؤال :

ـ « أتلبس الكوفية والعقال دائماً ؟ »

فضحك ملء فمه ، وقال :

ـ « ومـاذا تريـدني أن ألبس على العبـاءة ؟ البرنيـطة ، ام الـ توب هات ؟ . . ثم ان الكوفية تخفي الصلعة ، إذ تغطّيها باحكام » .

عندها اوقفته عنوة ، وصحت بوجهه :

ـ « عليوي ! أنت عليوي ! »

قال ، مستمرا في ضحكته العالية :

ـ « نعم ، عليـوي عبد التـوّاب ، ومن تريـدني أن اكون ؟ جيمـز بوند ؟ »

وانتشيت لثانية واحدة بأمل جنوني ، اذ سألته :

ـ « وهل الدكتورة . . . لمياء في السيارة ؟ »

وباستغراب لم اتوقعه منه ، قال :

ـ « ومن تكون الدكتورة لمياء ؟ »

أجبته وقد ملأتني الخيبة :

ـ « العفو ، عليوي ، العفو ! إنني اهذي . خشيت ان اكون أنا فعلاً الدكتور نمر علوان » .

قال ونحن ننفذ من باب الخروج الزجاجي :

ـ « دكتور من ؟ لم لا تقول أبو زيد الهلالي سلامة ؟ » وقهقه بمتعة زائدة ، ثم اضاف :

ـ « تلك ، هناك ، هي السيارة . المرسيدس البيضاء » .

أخذني اليها على عجل ، وعندما ركبت الى جانبه وهو يسوق ، خيّل إليّ أنها سيارة المرسيدس نفسها التي ركبت فيها مساء البارحة بصحبة لمياء . أم أنني تمنيت ذلك ، كمن يتمنى المستحيل ؟ رفعت الوردة ونشقت شذاها النديّ . هذه الوردة الحمراء ، على الأقل ، حقيقية . . .

لما رآني عليوي صامتاً ، ادار وجهه نحوي ، ثم قال :

ـ « اراك سارحاً . . . لعلك لم تنم هذه الليلة . . ها ؟ تنشّط ! أمامنا يوم حافل . . . وفي المساء ، تذكر ، ستكون ضيف الشرف في حفلة العشاء التي يقيمها نادي الفكر في فندق المريديان » .

قلت :

ـ « تقصد الحفلة التي يقيمها على شرفي جماعة من المفكرين والسياسيين ؟ »

قال :

ـ « نعم ، بالضبط . وسوف يطلبون إليك ان توقـع لهم نسخاً من كتابك ، مع الاهداء » .

ـ « أي كتاب ؟ »

ـ « ما بك يـا رجل ؟ كتـابك « المعلوم والمجهـول » الذي دوّختنـا به . . . » .

وهتفت :

ـ « كتابي ؟ « المعلوم والمجهول » ؟ »

هزّ عليوي رأسه يائساً مني : « لا أدري ما بك ! إلاّ اذا كنت منذ الآن قد بدأت تضيع في صفحات كتابك القادم » .

قلت :

ـ « لا سمح الله ، يا رجل ! »

وتطلعت من نافذة السيارة الى الأفق البعيـد . كانت الشمس قـد طلعت حمراء ملتهبة من بين غيوم شفيفة ، بدت وكأنها تريد أن تلازمهـا وتشتعل معها ، والشمس ترتفع نحو زرقة مترامية لا تنتهي ، ريّـا كوردة هائلة ، والسماء تتلألأ كاللازورد .

بغداد

الشؤون الادارية
ADMIN. AFFAIRS
المكتبة العامة

# الغرف الأخرى

إنها رحلة أعماق الليل ، تتحرك على حافة الجنون : واقعية كأشد ما يكون الواقع حسّا واستجابة ، ولكنها تبدو مستحيلة كالحلم ، حيث يكون المرء شاهداً ومتهماً ، ممثلاً ومتفرّجاً ، واعياً وغير واعٍ ، كلّها في آن معاً .

في روايته المثيرة هذه ، ينطلق جبرا ابراهيم جبرا في اتجاه الكوميديا السوداء ، ولكنه ، كدأبه دائماً ، يجعل لأبطاله سمات العصر ، وقد بات كل إنسان مهدداً بأن تشطر شخصيته لأكثر من شطرين ، ولن يعرف هل هو عادل الطيبي ، ام نمر علوان ، أم شخص آخر بالمرة : هل هو ما يعرفه عن نفسه ، ام أنه ما يتصوره الآخرون ، أم انه شخص ثالث لا يعرف أحد شيئاً عنه . . .

---

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب ٥٤٦٠/١١ بيروت